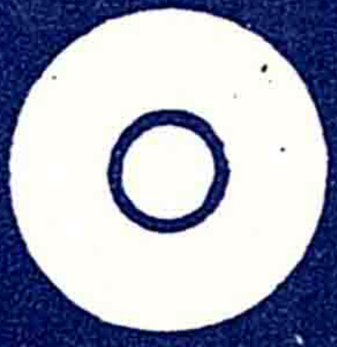
تأليف :
آرثر سونيسون



حرب العصابات في الصحراء

ترجمة :
كمال عصمت الشريف



المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

حرب العصابات في الصحراء

تأليف :
آرثر سونيسون

ترجمة :
كمال عصمت الشريف

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

الطبعة الثانية

١٩٨٩

مقدمة

الحرب قائمة ما وجد الانسان على ظهر الارض . والشعوب والدول في صراع الى يوم يبعثون . وكما تفوق الغرب على الشرق في كل الفنون في عصرنا الحديث ، كذلك كان تفوقهم في فن الحرب ـ فالحرب فن له أصوله وقواعده ـ ولكنها أصول وقواعد قابلة للتطوير وقد عمل الغرب دائما على تطوير الحرب كلما ظهر جديد من الاسلحة والمعدات .

وفي خلال الحرب العالمية الثانية التي نشبت بين دول غرب اوروبا والولايات المتحدة من جانب ودول المحور من الجانب الآخر ـ تطورت فنون الحرب وتقدمت بمقدار التقدم العلمي والفني الذي حققه الغرب ـ فظهرت اسلحة جديدة ووسائل جديدة ، فجنود المظلات ورجال الكوماندوز واستخدام الدبابات والمدرعات على أوسع نطاق في تكتيكات جديدة مغايرة تماما لتكتيكات الحرب العالمية الاولى ، طبَع الحرب العالمية الثانية بطابع خاص تميزت به عن سائر الحروب السابقة ، وكانت سمة الحرب العالمية الثانية هي سمة «الحرب الخاطفة» فرأينا دولا تسقط في أيام ، وجيوشا تذوب في ساعات . وفي الشرق الاوسط ، ابتداء من ١٩٤٨ حتى ١٩٦٧ ، نشبت حروب بين دولة دخيلة تبغي السيطرة والاستغلال ، وشعوب تحاول جاهدة ان تقضي على هذا الخطر الجاثم على أبوابها منتظراً الفرصة للتقدم والانطلاق وتحقيق أحلام الغزاة الجدد للشرق العربي . وقد رأينا ان الجيوش العربية في وقفتها ضد اسرائيل لم يكتب لها الفوز ـ رغم ان

العدد والعدة كانا في جانب العرب ــ وشاهدنا كيف ان اسرائيل قد حشدت قواها وعبأت جيشها ثم ضربت ضربتها الخاطفة دون ان ينتبه العرب لما يدبر لهم . فقوافل تموين جيشهم تسير في أمان ، ومخازن ذخيرتهم مصونة ومطاراتهم لم تمَس ، وطائراتهم تتزود بالوقود والذخيرة وتعاود الضرب والدمار لأمة العرب دون ان يعوقها شيء او تحد من قواها قوة مضادة ..

وكتاب اليوم . يرسم للقارىء العربي صورة من صور الكفاح البطولي النادر لجماعة من الرجال ، جاءوا من اقصى الشمال من بلاد البرد والصقيع ليحاربوا في سبيل أمتهم ونصرتها وسط صحارى قاحلة جرداء لم يعيشوا فيها قبل ذلك ولم يتعودوا على حرارتها وظمئها .. ولكنها العزيمة ، وحب الوطن . وحب المغامرة ، هو الذي دفعهم الى تحمل المشاق والصعاب في سبيل نصرة قضيتهم وايمانهم بأنهم يحاربون في سبيل قضية عادلة ، قضية حرية الانسان وأنتفاضه على كل ظلم .

الجيوش الخاصة

تتكوّن الجيوش في زمن الحرب من جنود محترفين ومدنيين في ثياب عسكرية ، وليس من الضروري ان يكون كل مدنَي او عسكري من المحاربين ، لان المدنيين قد يأسفون على ماضيهم الوادع، بينما العسكريون، ليس من المستبعد ان يفضل بعضهم حياة الثكنات الخاملة على المثيرات في الحرب . وفي الحقيقة ، فان قليلا جدا من النوعين يَصلح ان يكون من المحاربين . وبالرغم من ذلك فان المحاربين هم الذين يكسبون الحرب .

وهذا الكتاب ، يتناول هذه الطبقة القليلة النادرة من المحاربين ، فهو يتكلم عن رجال سواء كان ماضيهم مدنيا ام عسكريا ، فانه كانت لديهم الحماسة والشجاعة .. فهم رجال صمموا على ان ينقلوا الحرب الى العدو ولا ينتظرونه حتى يصل اليهم . وضباطهم من الشجعان الذين يثير غضبهم طول الروتين . وكانوا مستعدين ان يضربوا عرض الحائط بكل التعاليم . والمؤلف يقدم احترامه للعقيد «باخبولد» وقوته المعروفة باسم «مجموعة الصحراء بعيدة المدى» الذين مهدوا الطريق للتحركات في بحر الرمال ، حتى تحولت الصحراء بدلا من ان تكون عدوا الى صديق رغم انها صديق

متقلب . وبدون «مجموعة الصحراء بعيدة ألمدى» والتشكيلات التي لحقتها والتي يرجع اليها معظم الاعمال الواردة في هذا الكتاب ، فانه كان ما سوف تحققه قليلا للغاية .

ومن البداية للنهاية ، فانها قصة مدهشة ، منذ تلك اللحظة التي أقنع فيها «دافيد سترلنج» ألقيادة العليا من ان توافق على تشكيل تلك القوة الى ذلك اليوم الذي خانه فيه حظه بعد عديد من حوادث النجاة في آخر لحظة فسقط اسيرا في أيدي الالمان .. وقد حصل على ثناء روميل نفسه والذي قال : «لقد فقد البريطانيون القائد القدير المحنك لمجموعة الصحراء التي كبدتنا من الخسائر اكثر من اية وحدة اخرى في مثل قوتها» .

ولو صدر مثل هذا القول من اي قائد ، فانه يُعَدّ ثناء كبيرا . ولكن، ان يقول عنه روميل نفسه ، أنه قائد قدير ، فان هذا ، هو الثناء العظيم . فمن بين كل القادة الكبار في الحرب العالمية الثانية ، فانه كان أقلهم اهتماما بالحرب الجامدة ، الحرب التي كانت سمتها غالبة في الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ ــ ١٩١٨ .. فلقد اشترك روميل في القتال بعض الوقت في الجبهة الغربية غير انه قضى اغلب خدمته ، في الحرب الاولى ، في رومانيـــا وايطاليا مع الجنود الجولجيين الذين كانت مهامهم تشبه مهام الكوماندوز البريطانيين في الحرب العالمية الثانية .

وبالطبع ، فان ذلك الجندي المحترف الذي قاد الفيلق الافريقي كان هو الرجل الخليق بتقدير اعمال رجال «خدمة الطيران الخاصة» (S.A.S) حتى ولو كانوا يغيرون على خطوط مواصلاته ويدمرون طائراته .

ففي ١٩٣٩ كان المنتصرون في سنة ١٩١٨ قد دخلوا الحرب وهـــم يعتقدون في نظرية الدفاع التي ثبت انها عقيمة ضد «الهجوم الخاطف» . ونتيجة لاكراه البريطانيين على الانسحاب من اوروبا في دنكرك سنة ١٩٤٠ فانهم اضطروا الى ان يصبحوا اكثر نشاطا واقداما . ولجأوا الى الغارات السريعة حتى يظهروا انهم ما زلوا جادين في الحرب . وهكذا خلـــق الكوماندوز ، ومن هؤلاء الرجال ، جاء سترلنج و«جوك لويس» و«بادي ماين» وآخرين من الجماعة الاصلية .

وقد كان من نصيبي ان خدمت معهم من يونيو سنة ١٩٤٠ الى يناير ١٩٤٥ وبالنسبة لي فان الوحدة الثالثة من الكوماندوز سوف تظل «اعظم وحدة في كل وقت» كما قال قائدها الاول «جون ديرنفورد سلاتر» .

وفي خريف ١٩٤٣ وجدنا انفسنا في «ترمولي» في معركة عنيفة ضد ست عشرة فرقة مدرعة المانية .- وكان على جناحنا الباقين من وحدة «خدمة الطيران الخاصة» تحت قيادة بادي مين Paddy Mayne، ولقد كان رجلا ضخما ، ينسب اليه انه دمر من طائرات العدو اكثر من اي طيار مقاتل . وكل ما استطيع ان اقوله ان مثل هؤلاء الرجال يبعثون على الثقة. وكان اشتباك الالمان بهم كارثة بالنسبة لهم .

وآرثر سوينسون مؤلف الكتاب ، في حواره الحي السريع الحركة قد نجح كثيرا في خلق الجو المليء بالمغامرة والاثارة . وهو الجو الذي حقق فيما بعد سترلنج ورجاله نجاحهم المتتالي الباهر .

كان عددهم قليلا وكلهم من المتطوعين للعمل الشاق الذي كان عليهم ان يقوموا به . كانت مهمتهم هي مهاجمة العدو في عقر داره . وهدفهم تدمير مطاراته وما بها من طائرات ونسف مخازن ذخيرته وما بها من متفجرات ، وقطع خطوط تموينه وما تحمله من زاد ووقود . وقد حققوا نجاحا كبيرا واعترف روميل بذكائهم ومقدرتهم وانهم الحقوا به من الخسائر ما لم تلحقه به اية قوة اخرى في مثل عددهم .

في هذا الكتاب ، تجد المغامرة والفداء والعزم والتصميم . في هذا الكتاب يظهر الخلق البريطاني على حقيقته من الصبر وعدم اليأس والاستعانة بالاخطار والتصميم على ان يكون النصر الاخير لهم مهما لحقهم من هزائم في المعارك الاولى وما نزل بهم من خسائر .

ووسط الصحراء المحرقة في جوف بحر الرمال الاعظم ، مضت قوافلهم الصغيرة تشق طريقها مهاجمة مراكز العدو وتجمعاته ، وكانت الطائرات الالمانية تلاحقهم بالقذف من الجو والدوريات الايطالية تطاردهم في مدرعاتها .. ولكنهم لم يهنوا ولم يضعفوا ، بل واصلوا عملهم .

ان في هذا الكتاب لعبرة لمن يعتبر ، ودروسا قيّمة جدا لمن اراد ان يدرس ويتعلم وخاصة وان حوادثه دارت على ارض عربية وسط صحارى شبيهة بأرض المعارك مع العدو الصهيوني ، ان رجال حركة المقاومة الفلسطينية ورجال الجيوش العربية ، ليستفيدون اكبر الفائدة من قراءة هذا الكتاب مرة ومرة ومرة ، حتى يحفظوا كل كلمة فيه ويتعلموا روح أولئك الذين حققوا تلك الاعمال الخالدة التي وردت في الكتاب .

ونحن ، أمة العرب ، أمة لا تقرأ الا كل تافه غث ، وهذا ينسحب على الغالبية العظمى وما شذ عن القاعدة فهو نادر . ويجب علينا ان نقرأ كثيرا

وكثيرا جدا عن كل ما كتب عن الحروب وخاصة تلك التي دارت رحاهـا في أراضينا حتى يأتي اليوم الذي يخرج فيه منا جيل يستطيع ان يهزم اسرائيل . وقد جاء قبل اسرائيل الصليبيون وبقوا في ارضنا ثلاثمائة من الاعوام ، ومع ذلك خرج الصليبيون مكرهين ، وسوف تخرج اسرائيل من الشرق العربي .

الفَصْل الأول

الماجور يحضر الى القاهرة

في أكتوبر ١٩٣٩ ، غادر «رالف باجنولـد» (Ralph Bagnold) من قوة سلاح الاشارة الملكي انجلترا ليتسلم وظيفته في شرق افريقيا . وفي ذلك الوقت لم تكن ايطاليا قد دخلت الحرب بعد . والبحر الابيض المتوسط ما زال مفتوحا امام البواخر البريطانية وبالرغم من التوتر الذي يسود كل رحلة بحرية في زمن الحرب فقد كان في استطاعة باجنولد ان يتمتع بأشعة الخريف فوق سطح الباخرة وينتظر وصوله الى السويس بدون حدوث شيء.

ولكن ، شاء القدر ان تصطدم السفينة وتتجه الى الاسكندرية للاصلاح . ووجد باجنولد نفسه مواجها بالتأخير لمدة عشرة ايام او اكثر ، فقرر ان يزور بعض الاصدقاء في القاهرة . ولم ينتظر فيها طويلا حتى جاءه استدعاء من قيادة الجنرال «ارشيبالد ويفل» القائد العام للقوات البريطانية في الشرق الاوسط . وكان الجنرال ويفل ذلك الجندي العظيم لا يحب الاطالة في الكلام وكل ما قاله لباجنولد هو **«هل تحب وظيفة في قيادتي ؟»** وبدون تردد قبل باجنولد ، لان ايطاليا لو دخلت الحرب ضد بريطانيا فان على ويفل ان يقاتل في ليبيا والصحراء الغربية . وكان

باجنولد يعرف عن الصحراء ذلك الاقليم الغامض ، اكثر من أي شخص آخر في العالم .

وتمتد الصحراء الليبية غربا من النيل وجنوبا من البحر الابيض المتوسط حتى تغطي قرابة مليونين من الكيلومترات المربعة وهي أكثر المناطق جفافا في العالم . وحتى على بعد من الساحل بعدة أميال لا تسقط الامطار الا مرات قليلة في السنة . والى الجنوب قد تمر سنوات وسنوات قبل ان تسقط نقطة مطر واحدة . ولا تتكون الصحراء من الرمال . ولكن من تراب اصفر . ملايين عديدة من الاطنان ، ومنذ ايام الرومان وهي تزحف شمالا مبتلعة في طريقها حضارات قديمة . والصحراء ليست مستوية . ففي بعض الاماكن تقوم الصخور مكونة تلالا قليلة الارتفاع ، مثل هضبة الرويسات وهضبة المطرية بالقرب من العلمين . ولكي تتوازن هذه المرتفعات ، توجد المنخفضات .. وهي مساحات عظيمة من الارض السبخة ، تظهر على وجه الارض كأنها جروح قديمة ، وقليل من هذه المنخفضات لها منحدرات سهلة ، ولكن البعض ، مثل منخفض المناسيب تحيط به تلال مرتفعة ، واكبر هذه المنخفضات هو منخفض القطارة الذي يمتد الى الجنوب الغربي بادئا من العلمين ويحتل عدة آلاف من الاميال المربعة . ويبلغ عمق المنخفض ٤٠٠ قدم تحت سطح البحر ، ويتكون غالبا من مستنقعات ملحية ، ويمتد المنخفض ناحية الجنوب الغربي كأصابع اليد وأبهامها الى حيث يوجد بحر الرمال الاعظم وبحر رمال «كلامنشو» . وتعرف هذه الارض عند العرب باسم «ارض الشيطان» وفي قديم الزمان كان معروفا انه لا يمكن اجتيازها الا بقوافل الجمال . وفي هذه الساحات الهائلة لا توجد واحات . وبالاضافة الى جفافها فان الصحراء كذلك شديدة الحرارة فبعيدا عن الشريط الساحلي ؛ فان وصول درجة الحرارة الى ١٢٠ درجة فهرنهيت هو شيء طبيعي للغاية . ومن منتصف النهار فان الرمال تلتهب تحت حرارة الشمس . وكتب البريجادير «لوكاس فيليب» يقول : **«ان البحيرات الخيالية التي يسميها الاعراب «ماء الشيطان» تخدع العين ويبدو للناظر ان الاشياء تسبح وتتحرك في الفضاء عندما يبدو الافق كسراب مرتعش . ومع غروب الشمس يكون الخلاص . رغم انه عادة في مثل ذلك الوقت تهب الزوابع الرملية التي تكتم أنفاس الانسان والحيوان في غلالة سميكة من التراب الناعم . وعندما يأتي الليل ترى السماء تلمع فيها بلايين النجوم .**

ولكن الهواء يصبح باردا باعثا على القشعريرة وخاصة في الشتاء . وقبل الفجر تزداد سرعة الريح وتصبح حادة قاطعة مثل السكين . فالصحـراء الغربية في مجملها مكان قاس غريب حيث يكمن الخطر دائما ، والمحافظة على البقاء صعبة للغاية ، فهي مكان يكره الانسان الاقامة فيه دائما ، ولكن قليلا منهم وقعوا تحت سحرها ، فقد عرفوا كيف يألفوها ويحبوها . وكان زعيم هذه الفئة القليلة المختارة في فترة ما بين الحربين هو الرائد «رالف باجنولـد» .

وكان باجنولد ضابطا نظاميا في الجيش البريطاني ، وقد تلقى علومه في كلية مالفرن وكلية جونفيل وكايوس بجامعة كمبردج .. ودرس فـي الاكاديمية العسكرية الملكية بولوتش . وفي سنة ١٩١٥ تخرج ضابطا في سلاح المهندسين الملكي . وخدم في الجبهة الغربية حتى ١٩١٨ . وفي سنة ١٩٢٠ نقل الى فيلق الاشارة الملكي ، وبعد عدة سنوات وجد نفسه يقضي خدمته في الشرق الاوسط فضم اليه بعض المتحمسين وبدأ فـي تنظيم رحلات في نهاية الاسبوع من القاهرة الى واحة سيوه او سيناء . وتدريجيا ، زاد طموحه حتى وصل سنة ١٩٢٠ الى القيام برحلات لا تقل عن ستة آلاف ميل او اكثر ، مستكشفا غالبية المناطق الصحراويـة بين شواطىء البحر الابيض وشمال السودان . وخلال هذه السنوات حسّن من البوصلة الشمسية ، حتى بلغ بها حد الكمال . واخترع عدة ابتكارات لاخراج السيارات المغروزة في الرمال . وجمع حصيلة ضخمة من كل انواع المعلومات عن الصحراء .

وبالرغم مما حققه من نجاح فقد ظل «باجنولد» رجلا متواضعا ، ولم يحاول لفت الانظار اليه .. وحتى اليوم ، فان شكله لا يميزه الا النادر القليل . ولم تثر اعماله او كتبه التي نشرها فيما بعد اي اهتمام فـي وزارة الحرب . ولكن ، لحسن الحظ ، فان المجمع الجغرافي الملكي منحه التشجيع والمعونة اللتين مكنتاه من مواصلة بحوثه . وعند اندلاع الحرب العالمية الثانية ، كان في استطاعته ان يذهب الى اي مكان في الصحراء ثم يستطيع العودة منه . فلقد كان يعرف الطرق والواحات والمخاطر . وبما انه عسكري محترف ، فانه كان يتوق الى استخدام علمه ضد العدو .

وظل لعدة شهور لا يبدو له امكان تحقيق ذلك الا في صورة استشارية . غير انه في يونية ١٩٤٠ سرعان ما تغير الموقف لان ايطاليا عبأت جيشها في ليبيا واعلنت الحرب . وقبل ذلك بأربع وعشرين ساعة كان باجنولد قد

امر من قبل الجنرال ويفل بتكوين وحدة عسكرية يطلق عليها اســـــم «الدوريات طويلة المدى» والتي سميت فيما بعد باسم «مجموعة الصحراء بعيدة المدى» . وفي يوم ٢٣ يونيو وافقت الجهات المعنية على تلك الخطط. وكما يدل الاسم المختار فان مهمة الوحدة سوف تكون مراقبة تحركات العدو عبر بحر الرمال الاعظم وارسال المعلومات ذات الاهمية البالغة اللازمة للجنرال ويفل الذي كان يعد العدة للمعركة القادمة . وقام باجنولد بسرعة بالاتصال بأصدقائه الذين أطلق عليهم اسم «جنود الصحراء» وطلب منهم الانضمام اليه في القاهرة . وكان هؤلاء هم : بات كلايتون من تنجانيقا ، وكندي شو من فلسطين ، وجاي برندر جاست الذي كان في انجلترا . وفي خلال شهر تجمع ثلاثون ضابطا وجنديا واستعدت الوحدة للعمل ولم تكن مهمتهم مهمة سهلة ، لان المهمات والمعدات كانت قليلة ولم يكن فـــي استطاعة باجنولد ان يطلب لنفسه ولوحدته الاسبقية على غيره . فأخذ يعمل بجد وتمكن من اقناع صديق له لطباعة الخرائط واقترض اجهـــزة التيودوليت الخاصة بالرصد من مصلحة الطبيعيات بالحكومـــة المصرية ، واستولى على بوصلات الشمس مـــن الجيش المصري . وأما النظارات المعظمة وآلاف الاشياء الاخرى اللازمة للوحدة فقد جمعها من الجاليـــة البريطانية في القاهرة واشترى بعضها بالنقد من الاسواق الخلفية فـــي القاهرة .

ولكن قبل ان تستطيع الوحدة التحرك ، كان يلزمها وسائل النقل . وكان باجنولد في رحلاته السابقة الى الحرب يستخدم سيارات النقل حمولة طن ونصف وهي عربات ممتازة من طراز فورد . ويصل مداها الى ١٢٠٠ ميل غير انها كانت صغيرة الحجم نسبيا على المدافع والذخيرة والالغام وباقي المعدات اللازمة للحرب الحقيقية . ولذلك ، فانه اقترح استخدام سيارات حمولة ٣ طن مجهزة بإطارات خاصة لامكان السير على الرمال . وبما ان الجيش البريطاني في مصر لم يكن يملك مثل هذه السيارات فقد طلبها باجنولد من الجيش المصري ومن شركة شيفروليه بالاسكندرية . وقد ظن كثير من الناس ان مثل هذه السيارات سوف لا يمكنها السير فوق الرمال بالنسبة لكبر حجمها وثقل حمولتها . غير ان باجنولد كان واثقا تماما مما يعمله ، وقد اثبتت الحوادث انه كان على حق .

وكان كل رجاله من المتطوعين الذين جاءوا بمحض اختيارهم مـــن وحدات عديدة . وكان كثير منهم يقبل أنزال رتبته عما هي عليه حتـــى يمكنه الالتحاق بالوحدة . فقد خدم حملة رتبة النقيب كملازمين . كمـــا

قبل الجاويشية ان يكونوا انفارا عاديين . وقد شكلت ثلاث دوريـــــات بواسطة الجيش النيوزيلندي . وكان رجال هذا الجيش ضخام الاجسام معتزين باستقلالهم واغلبهم ينحدر من اصل ريفي وبذلك يجهلون كل شيء عن الصحراء ، غير انهم كانوا مصممين على قهرها .

ولكن السؤال هو مم كانت تتكون الداورية ؟ وما هو احتياجها الى وسائل النقل ومن الاسلحة والمعدات ؟ وكان تجهيز الدورية كما وصفـــه باجنولد هو ان تكون الوحدة من ضابطين وثلاثين رجلا . وهؤلاء تقوم بنقلهم احدى عشرة مركبة مسلحة كل منها بمدفع رشاش وتضم الوحدة كذلك ٤ بنادق مضادة للدبابات ومدفع من عيار ٣٧ مم طراز بفرز وما يلزم من البنادق والمسدسات .. وفيما بعد ، تبين ان الدوريات كبيرة العدد .. ولذا ، فقد انقسمت كل دورية الى قسمين تتألف كل منهما من ضابـــط وخمسة عشر جنديا الى ثمانية عشر جنديا يركبون في ٥ سيارات وكان هذا هو الشيء العادي في تشكيل القوة . ومن السهل معرفة السبب في ذلك . فلكي تستطيع الوحدة البقاء فان على كل دورية ان تضم بين افرادها عددا من الخبراء ورجال الاشارة والميكانيكيين والملاحين ، وكان لا يمكن تقليل عدد الدورية الا كلما اكتسب رجالها مزيدا من الخبرة . والى جانب الرجال والاسلحة كانت السيارات محملة بالمؤن والماء الذي يكفي ثلاثـــة اسابيع ، واجهزة اللاسلكي والبطاريات وحصائر الرمال لرفع السيارات المغروزة في الرمال . والمهمات الطبية وغير ذلك من اللوازم .. اما السيارات نفسها فقد تغير شكلها كثيرا، فالابواب والحواجز الزجاجية والاسقف ازيلت، كما قويت السوست للسيارات ، واضيفت قواعد لتركيب المدافع الرشاشة عليها .

وبينما كان الرجال والمعدات تستكمل ولكن من قبل ان يتم ذلك بكثير، قام باجنولد بعمليات تدريب سريعة على عبور الصحراء والملاحة واعمال الاشارة الميدانية والتدريب على اطلاق النار والتمرين على استخدام المعدات، وكان التدريب المبدئي بسيطا ويتم بالقرب من مركز قيادته في القاهرة ، مما جعل المتفكهين يطلقون على الوحدة اسم «مجموعة الصحراء قصيرة المدى» ورغما عن ذلك ، فان التقدم كان مستمرا . وبعد خمسة اسابيع من اعطائه الامر بالبدء في عمله ، كان باجنولد يقدم تقريرا لويفل ، بأنه مستعد للعمل، كان هذا عملا رائعا ، ولم يكن من الممكن تحقيقه الا بمهارته كجنـــــدي ومستكشف . ومرة اخرى وضع الجيش البريطاني ــ الرجل المناسب في المكان المناسب .

الفصل الثاني

بدء العمليات

ان نظرة واحدة الى الخريطة سوف تظهر لاول وهلة المكان الـــذي وجدت فيه نفسها بريطانيا خلال تلك الايام الاولى من الحرب .. فلكـــي تستطيع ان تحارب وتهزم قوات المحور وخاصة بعد سقوط فرنسا ، فانه كان من الضروري تعبئة كل قـــوى الامبراطورية من دول الدومنيـــون والمستعمرات والدول تحت الانتداب . وكانت هناك حاجة ملحة لان تجلب الجنود من استراليا ونيوزيلندة والهند . وأن تستورد الصفيح والمطاط من الملايو والبترول من الشرق الاوسط والخليج العربي ومن أماكن اخرى . وفي الوقت نفسه كان من الضروري ارسال معدات ومهمات الحرب من كل نوع الى الشرق الاقصى من دبابات وطائرات وذخائر . وفي اختصار ، ان المواصلات بين الشرق والغرب كانت ذات اهمية قصوى ، واحتلت قناة السويس حلقة الاتصال بين البحر الابيض والمحيط العربي اهمية بالغة .

ومن ثم فان قوة بريطانيا كانت مرتكزة على مصر وعبر القنال . وكانت القيادة العامة للشرق الاوسط موجودة بالقاهرة . وكان من الواضح انـــه بدخول ايطاليا الحرب ان استراتيجية المحور ستكون هي الاستيلاء على قناة السويس ، وبذلك يقضي على مواصلات بريطانيا وقوتها في الشرق الاوسط ولم يكن حادثا عارضا ان وقع الاختيار على الجنرال ويفل الذي كان معدودا كأحسن القادة في الجيش البريطاني لكي يرسل الى القاهرة من اجل المهمة

العاجلة وهي بناء وتدريب جيش في مصر .

وماذا بالنسبة للايطاليين . ان مستعمرتهم ليبيا تقع الى الغرب من مصر وبحدود مشتركة مع مصر طولها ٨٠٠ ميل تمتد من البحر الابيض المتوسط الى الجنوب . وكانت تعتبر قاعدة جيدة للعمليات . وما ان هلّ صيف ١٩٤٠ حتى كان يواجه جيش ويفل الذي لا يزيد عدده عن ٨٦ الف مقاتل ، جيش ايطالي لا يقل عن ربع مليون جندي . وكان هذا الجيش يحتوي على ٩ فرق كل فرقة مكوّنة من ١٣ الف جندي . وبالاضافة الى ذلك ، كان يوجد ثلاث فرق من الاقمصة السوداء وفرقتان من الليبيين . عدا القوات الملحقة بالفيالق ورئاسات الجيوش . وكان القائد الاعلى الايطالي في شمال افريقيا هو الماريشال جرازياني الذي قام بتنظيم قواته في جيشين ـ الجيش العاشر في «سيرانيكا» اي في برقة ، وهو الاقليم المتاخم لمصر . والجيش الخامس في طرابلس ناحية الغرب . وبعد سقوط فرنسا في يد الالمان سنة ١٩٤٠ كانت له حرية تجميع الجيشين معا ، لشن هجوم ضد حوض النيل . فاذا قرر ان يفعل ذلك ، فان هذا سوف ترينا اياه الايام . وعلى اي حال ، فان ويفل سيكون اقل عددا في الرجال لعدة شهور ، وعليه ان يستخدم كل قواه في القيادة ، لكي يستطيع ان ينقذ الموقف .

وفي اول سبتمبر ، بعد ان قام «بات كلايتون» بعدة عمليات استطلاع عبر بحار الرمال اعطيت «مجموعة الصحراء البعيدة المدى» اول فرصة كبيرة لها لتثبت جدارتها . وبعد مرور شهور عدة ، نشط الايطاليون وتقدموا عبر الحدود المصرية حتى وصلوا الى بلدة «سيدي براني» . وتساءل البريطانيون عما يحدث في الصحراء الجنوبية .. وعما اذا كانت هناك حركة التفاف من اليمين يدبّرها الايطاليون بالاضافة الى الهجوم الرئيسي على الساحل . ولم يكن في استطاعة احد ان يجيب على هذا السؤال . ولذلك اخذ «باجنولد» تعليماته . لان مفتاح الموقف يكمن في واحة الكفرة وهي الواحة التي تقع جنوبي بحار الرمال . وبذلك فهي تحرس الباب الخلفي لليبيا . وتقع الواحة في منخفض تحت سطح البحر بكثير ، وتعتبر الواحة منعزلة حتى بمقاييس افريقيا وبها مساحات واسعة من الماء تحيط بها اشجار النخيل . والماء متوفر بكثرة دعت الى وجود قرى وبلاد تمتد لعدة أميال في الواحة ، وتحيط بها مساحات خضراء من الارض المنزرعة . وقد استولى الايطاليون على الكفرة من السنوسي ١٩٣١ . وبذلك أمّنوا

سيطرتهم على الصحراء الداخلية . وبدأوا على الفور في تحصين المكان وبنوا المنشآت العسكرية ومقرا للحاميات بها ، وانشأوا المطارات ، ورغم ان الواحة منعزلة ، فان الكفرة كانت على بعد قليل بالطائرة من واحة العوينات حيث تتلاقى حدود مصر والسودان وليبيا . وفي واحة العوينات كانت توجد مياه وفيرة كذلك الى جانب الهابط للطائرات . وكلتا القاعدتين كانتا على الطريق الجوي المؤدي الى قوات الايطاليين في الحبشة تحت قيادة «دوق اوستا» . وبذلك فان الكفرة والعوينات بالاضافة الى كونهما يمثلان خطرا على جيش ويفل ، فانه كان بالامكان ان يستخدم العدو الواحتين لقطع طريق المواصلات بين ويفل والجنرال كننجهام في شرق افريقيا وكذلك مع الفرنسيين في اقليم تشاد ، حيث قام الحاكم الزنجي «أوبوي» باغلاق انضمامه الى الجنرال ديجول قائد قوات فرنسا الحرة .

ولذلك ، فانه في ٥ سبتمبر قام باجنولد مع جزء من مركز قيادته وقوات الدورية «و» تحت قيادة الرائد «متفورد» بمغادرة القاهرة ، متجهين الى «عين دالا» الواقعة على الحافة الشرقية لبحر الرمال الاعظم . ثم اتجهوا غربا الى نقطة اطلقوا عليها اسم «الكثيب الكبير» . الذي يقع على الحدود الليبية وقد استطلعه بات كلايتون خلال عمليات المساحة سنة ١٩٣٢ . ويقع الكثيب فوق سهل من الحصى بين بحري الرمال . ولم يكن الكثيب يزيد ارتفاعه عن ٥ أقدام ولكن كان من الممكن رؤيته من مسافات بعيدة . وتدريجيا احاطت بالكثيب مستودعات للطعام والبترول ، حيث قام «كندي شو» بنقل المؤن من عين دالا . كما قام «ستيل» و«بات كلايتون» بنقل المؤن من سيوه . وبعد عدة ايام والانتهاء من تخزين المؤن ــ تفرقت الدوريات ــ واتجه «كلايتون» الى «تكرو» في داخل تشاد الفرنسية في ذلك الوقت وهي تبعد مسافة ٦٠٠ ميل الى الجنوب ؛ واتجه «متفورد» الى المنطقة شمالي الكفرة . وعاد «مستيل» الى سيوة ليحضر مزيدا من البترول .

ووصل متفورد الى طريق «الكفرة ــ جالو» ومنه الى طريق آخر يربط بين «تازربو ومارادا» .

ووصل متفورد الى طريق «الكفرة ــ جالو» ثم الى طريق ثان بين «تاذربو ومارادا» بدون حدوث حادث . رغم ان كثيرا من رجاله مرضوا من شدة الحرارة وبعضهم اصبح في شبه غيبوبة ، وحددت تعيينات المياه بستة لترات من الماء للرجل في اليوم الواحد . وكان هذا مقدارا كافيا في

الظروف العادية . ولكنه كان الحد الادنى اللازم وسط الصحراء المحرقة. وعندما كانت تصل الشمس الى ذروتها ساعة الظهيرة كان الكلام يدور بين الرجال حول الماء والماء فقط ، كما لاحظ «كندي شو» رئيس الدورية . وكان كل فرد يحاول ان يجعل نصيبه من الماء يبقى أطول مدة ممكنة . فبعض الرجال يحتفظ بجزء من نصيبه ليشربه ممزوجا بأملاح «انيوس» عند المساء ، بينما يفضل آخرون البرودة على الكمية فيسكبون بعض الماء على صفحة طبق من الصفيح في المساء حتى يبرد قابلين ما يتعرض له الماء من نقص نتيجة التبخر لكي يحظوا بشربة باردة .

وفي ٢٠ سبتمبر حدثت اولى المعارك على الطريق المؤدي الى واحة الكفرة ، وكان ما حدث هو انهم شاهدوا سيارتي نقل ، حمولة ٦ اطنان تظهران امامهم ، فأطلقوا عليهما نيران مدافعهم الرشاشة من طراز «لويس» ونتيجة لهذا فان ركاب السيارتين وهم اثنان من الايطاليين وخمسة من العرب ومعزة استسلموا لهم ، وغنمت الدورية كذلك ٢٥٠٠ جالون من البنزين وحقيبة حكومية من حقائب البريد . وبسرعة بالغة نقل الاسرى الى القاهرة . وبمجرد وصولهم ذاعت شهرة «مجموعة الصحراء بعيدة المدى». وانتشرت الشائعات في البارات والمطاعم ان المجموعة قد أغارت على مقر قيادة الماريشال جرازياني . أما بالنسبة لويفل وهيئة أركان حربه ، رغم فرحهم بهذا العمل فانهم كانوا اكثر اهتماما بالمعلومات الحربية التي قدمها باجنولد . وفي اول اكتوبر من تلك السنة ارسل القائد العام ويفل هذا الخطاب الى باجنولد :

«عزيزي باجنولد . أود ان تنقل الى الرجال والضباط تحت قيادتك تهنئتي لهم وتقديري للنتائج المثمرة التي حققتها الدوريات الحالية بواسطة رجالك في اواسط ليبيا ، وانني على علم بالصعوبات الجسمانية البالغة التي كان عليكم ان تتغلبوا عليها وعلى الاخص شدة الحرارة البالغة . وان العمليات التي قمتم بها وبلغ طولها ١٥٠ الف ميل قد خُتمت ختاما ناجحا. وهي تظهر مستوى من الكفاية في الاعداد والتنفيذ يجعل منك ومن ضباطك وجنودك رجالا فخورين . وان تقريرا مفصلا عن اعمالك قد أبرق به الى وزارة الحرب . واني اتمنى لك كل نجاح في عملياتك المتواصلة التي سوف تكون مساهمة هامة في جعل القوات الايطالية في المناطق الخلفية على حذر دائما وبذلك تزيد من قلقهم ومن الصعوبات التي يواجهونها» .

ووقع على الخطاب **المخلص : ارشيبالد يرشيفال ويفل .**

ولم يكن باجنولد رجلاً يغرّه الثناء ، فواصل عملياته الجديدة التي تهدف الى جعل الايطاليين في قلق ، دائما ، ويجعلهم في شك باستمرار عن المكان الذي سوف يضرب فيه ضربته ثانية . وبذلك فانه بينما كان متفورد يتجه الى «عين دوآ» كان كلايتون يهاجم واحة اوحيلة التي تبعد خمسماية ميل الى الشمال . وأما الحاميات الايطالية التي تدافع عن تلك الاماكن ، فكانت تعتبر نفسها في أمان لبعدها وانعزالها عن خطوط القتال لدرجة ان الحارس الايطالي عندما شاهد كلايتون ذهب اليه ليحييه وكان مذهولا عندما طلب منه ان يسلم سلاحه . وعندما فتحت مدافع البوفرز التابعة لكلايتون نيرانها على الواحة ، طارت سحابة كبيرة من الحمام من أعلى برج الحصن . اما الايطاليون فقد تسللوا من فوق الحائط الخلفي لكي يختبئوا بين اشجار النخيل . وبعد اسبوع عاد كلايتون الى القاهرة بعد ان قطع رحلة في الصحراء طولها ٢٠٠٠ ميل في اسبوعين . وفي نفس الوقت كان «ستيل» قائد الدورية (د) قد عبر بحر الرمال الى الكفرة وهو يبث الالغام في الطريق ويدمر طائرة قاذفة ايطالية من طراز «سافويا س ٧٩» وجدها على مهبط الطائرات الغربي ، في المطار ، ودمر معها بعض مستودعات الوقود الضخمة .

وقليل من قادة الحرب من يحب «الوحدات الخاصة» فهو يدرك جيداً كيف يمكن ان يتحولوا الى جيوش خاصة تستهلك الكثير من المعدات والرجال ، غير ان ويفل كان يثق بمجموعة الصحراء بعيدة المدى منذ البداية. وفور نجاحها الاولي قرر ان قوتها يجب ان تضاعف. ومن ثم فانه في ديسمبر أنشئت دورية جديدة نصفها من حرس الكولدستريم والنصف الآخر من الحرس الاسكتلندي تحت قيادة «مايكل كرايتون استيوارت» كما قام الضابط «ماكجريث» بتشكيل دورية من المتطوعين من فرقة الفرسان الموجودة في فلسطين . وتولى الضابط «هوليمان» قيادة الدورية الروديسية المشكّلة من رجال من روديسيا الوسطى من الانجليز . وقد عهد باجنولد الى الدورية «ح» بالقيام بالعملية التي كان يخطط لها منذ نوفمبر ضد واحة مرزوق عاصمة اقليم فزان في الشمال الشرقي من ليبيا وذلك بالتعاون مع الفرنسيين الاحرار . وذهب باجنولد الى «فورت لامي» مركز القيادة لاقليم تشاد الفرنسي لكي يتفاوض مع العقيد «درنانو» القائد الذي كان يتوق للاشتباك مع الايطاليين . وقد أوضح «درنانو» وجهة نظره بأنه من اللازم القيام بعمل لكي يظهر للعالم ان الفرنسيين الاحرار في المستعمرات لا

تعوزهم الرغبة في القتال . وكان «درنانو» ضابطا طويلا يضع المونوكل على عينه مرتديا رداء يشبه العباءة . ويذكر الانجليز بشخصيـة «يوجست» الروائية عن الفرقة الاجنبية وغيرها من الافلام .

وكان من الطبيعي ان يفهم ان العملية سوف تكون «اضرب واهرب» لانه لو تمكنت قوة الحلفاء الصغيرة من الاستيلاء على الواحة ، فانه لم يكـن لديهم الامل في ان يحتفظوا بها لاكثر من عدة ايام . ولكن لو نجحت الغارة فان الايطاليين سوف تهتز معنوياتهم وقد يؤدي ذلك الى سحب الجنود من الجبهة الى المناطق الخلفية . اما باجنولد الذي كان يعرف مرزوق جيدا من رحلاته قبل الحرب أوضح له ان الواحة مركز تجاري للصحراء ، وهي مقر حامية هامة وملتقى لعدة طرق . وبالاضافة الى وجود حصن صغير ومطار حربي كانت هناك بلدة تعدادها ثلاثة آلاف نسمة ومخازن ومستودعـات ضخمة للتموين . وكانت الصعوبة في تنفيذ العملية مثلها مثل كل الصعوبات في عمليات مجموعة الصحراء البعيدة المدى تكمن في بعد المسافة . فواحة مرزوق تبعد الفين من الاميال عن القاهرة بالطائرة وعلى بعد ٣٥٠ ميلا من أقرب مخفر لحدود العريش الموجود في تبستي . وحتـى لو نجحت الدوريات في الوصول الى الهدف بدون ان تكتشف . فما زالت هنـاك مشكلة الهروب فوق الصحراء القاحلة ومن المحتمل ان تلاحقهم الطائرات . وعلى كل فان المخاطرات كانت معروفة ، ويجب ان تقبل . ومضوا في رسم الخطط بكل سرعة .

وقبل ان يشرعوا في شن الهجوم ، فقد كان هناك تصعيد في ميدان الحرب الرئيسي . ففي العاشر من ديسمبر سنة ١٩٤٠ شن ويفل هجومه على الماريشال جرازياني . وفي عملية رائعة ، تم تطهير مصر من الجيش الايطالي وبدأ في دفعهم الى الخلف عبر اقليم برقة في الجزء الشمالـي الشرقي من ليبيا . وأسر البريطانيون آلاف الاسرى ومن بعض هؤلاء الذين أمكن أستجوابهم أمكن الحصول على المعلومات الدقيقة عن طبيعة واحـة مرزوق ونقلت هذه المعلومات الى «باجنولد» .

وفي اليوم السابع والعشرين من ديسمبر قامت الدورية باستعراض في مركز قيادتها ، الذي كان مقره قلعة صلاح الدين في القاهرة التي تقع على حافة الصحراء الشرقية . حيث ينحدر المقطم تدريجيا نحو نهر النيل. وهناك منظر رائع من القلعة اذا نظرت الى المدينة وأسقف منازلها من ذلك الارتفاع ، وعلى بعد ترى الاهرام الواقعة على حافة الصحراء الغربية فـي

الناحية الاخرى من النيل . وكان قائد الدورية هو «مات كلايتون» الذي قاد كذلك الدوريات المشكّلة من قوات نيوزيلندية . اما الدورية «ح» فقد كان يقودها «كرايتون ستيوارت» الذي كان يقوم بأول عملية له في الصحراء ، وكان معه «كندي شو» يعمل كدليل وملاّح للدورية وهو كذلك ضابط مخابرات المجموعة . وقبل الساعة الثالثة صباحا ، جاء باجنولد نفسه للتفتيش على الجماعة التي كان عدد أفرادها ٧٦ رجلا و٢٤ سيارة. وبعد كلمات وداع قصيرة ، تحرك الطابور من القلعة مارا بين المسجدين الواقعين أسفل القلعة مخترقا شوارع القاهرة المزدحمة حيث عبروا النيل فوق جسر «قصر النيل» واتجهوا الى طريق الهرم المؤدي الى فندق مينا . ومن هناك سار الطابور بجوار أهرام الجيزة وعند حلول المساء كان الطابور قد قطع ٥٠ ميلا في قلب الصحراء متجمعين ناحية الجنوب الفربي . واستمرت الرحلة لمدة يومين . وفي يوم ٢٩ وصلت القافلة الى «عين دوالا» وهي واحة صغيرة على الحافة الشرقية لبحر الرمال الاعظم . ثم اتجهوا غربا وأصبحوا في مواجهة المكان الذي سماه كلايتون منذ سنوات «الارتقاء السهل» وهو عبارة عن قوس عظيم من الرمال ، يمتد الى قمة حائط صخري . ولسوء الحظ كانت الواجهة قد استهلكتها الدوريات السابقة وكان الصعود ليس سهلا بالمرة . وعلى كل فقد وصلوا عند مغيب الشمس الى ما سمّاه «كرايتون ستيوارت» معبر ضيق من الصخر بين واديين عميقين . وهو مدخل درامي لبحر الرمال الاعظم والباب الخلفي المؤدي الى ليبيا .

وفي صباح اليوم التالي ، اتجهت الدورية غربا عبر بحر الرمال وكانت الريح باردة جدا ، وفرح الرجال بمعاطفهم التي أحضروها وهي من صوف الغنم . وفي الافق البعيد ، تراءت لهم كثبان الرمال كثيب يتلو كثيبا وبعضها منحدر سهل ولكن البعض الآخر كان حاد الانحدار . وزارت السيارات وهي تنحدر أسفل الكثبان لكي تستجمع قواها لصعود الكثيب التالي ، وكثيرا ما كانت السيارات تعجز عن الوصول الى قمة الكثيب وكان على كل رجل ان يترجل من السيارات لكي يدفعوها فوق الحصائر التي احضروها لمنع انغراسها في الرمال . وفي أوائل العمليات لم يكن السائقون من المهارة بحيث يختارون الطرق الصالحة . ولم يقطع الطابور اكثر من ٦٠ ميلا ولكنهم سرعان ما تعلموا. وفي اليوم العاشر من بدء الرحلة قامت القوة المغيرة باقامة معسكرها على حافة «بحر كلانشو الرملي» . وفي اليوم التالي

كانت الرحلة هي عبور هذا البحر الذي يمتد ٩٠ ميلا عرضا . وتصبوا معسكرهم على مقربة من العلامات الكيلومترية على الطريق الممتد بين واحة جالو وواحة الكفرة . وفي ٤ يناير وصل الطابور الى نقطة تبعد ١٠٠ ميل من الجنوب الغربي من بلدة «واد الكبير» . وهكذا تمت المرحلة الاولى من العملية . ولم تكن مرزوق تبعد عنهم اكثر من ٢٥٠ ميلا الى الغرب .

وجاءت فترة من التوقف . فقد اتجه «مات كلايتون» الى الجنوب ، نحو «كايوحي» لكي يحافظ على موعد مع العقيد «دي أورناتو» . واتجه «كندي شو» الى الجنوب الشرقي لاستطلاع «ممر تيرتجي» الذي لو ساءت الامور فمن الممكن ان يتخذ طريقا للنجاة . وفي نفس الوقت ، شغل رجال الدورية «و» انفسهم ببعض التدريبات على الاسلحة والبنادق المضادة للدبابات . وأثار ذلك دهشة النيوزيلنديين الذين كان همهم المحافظة على قواهم وعدم ارهاقها بالتمرين .

وعند الظهر من اليوم السابع من يناير ، عاد «كلايتون» ومعه عشرة جنود فرنسيين وكميات من البترول حملوها فوق الجمال عبر الممرات الموجودة في جبال تيستي وجاء مع العقيد «دي أورنانو» النقيب «ماسو» وهو شخصية غير سهلة .. وجاء معهم كذلك احد الملازمين واثنان من «العرفاء» وخمسة جنود وطنيين .

وعند المساء بعد عودة «شو» من استطلاعه ، عقدوا مجلسا للحرب ، واتفقوا جميعهم على أن ميزة المفاجأة يجب الا تضيع منهم بالقيام بهجوم على «واد الكبير» رغم انه قيل انها تضم معسكرا للحجز قيل ان فيه بعض السجناء السياسيين . فالهدف الرئيسي هو «مرزوق» . وكانت الخطة المتفق عليها هي الاتجاه اليها بكل سرعة وفي صباح اليوم التالي اتجهت السيارات نحو الشمال الغربي . وأخذت معالم المنطقة تتغير بسرعة ، فقد اختفت الرمال وحلت محلها أرض وعرة ذات منخفضات تنتشر فيها التلال المسطحة ، ثم ظهر مرتفع كبير مغطى بالصخور الضخمة الحجم ، وبعد ذلك ظهر احد التلال حيث عسكروا وقضوا ليلتهم ، وفي صباح اليوم التالي انحدروا من التل الى السهل ، حيث شاهدوا آثارا جديدة في الرمال لسيارات ورجال . ثم عادت الصحراء الجرداء الى الظهور . وخوفا من ضياع عنصر المفاجأة ، امر كلايتون بضرب المعسكر مبكرا ، فأقاموا معسكرهم في منخفض كبير يتسع لاخفاء السيارات . والآن ، اصبحت «مرزوق» على بعد يوم واحد ناحية الغرب .

وكانت آخر المعلومات التي تلقاها كلايتون عن مرزوق هي ان الحصن الحجري الحديث الموجود هناك تحتله حامية قوتها بين ٢٠٠ — ٣٠٠ رجل يملكون جهاز أرسال لاسلكي ، وان المطار يدافَع عنه بواسطة أوكار للمدافع الرشاشة ، وكانت خطته هي عزل الحصن عن المطار ثم تدمير الطائـرات والمطار . ولم يكن كلايتون يملك المدفعية اللازمة لكي يدمر الحصن ، وكان اعتماده على ان صوت مدافع البفرز ومدافع المورتار من عيار ٢ بوصة كافية لالقاء الذعر في قلوب الحامية حتى يفروا . اما اذا تحملوا وطأة الهجـــوم وطلبوا المعاونة من مطار «هن» الذي يبعد ٤٥٠ ميلا الى الشمال ، فــــان الموقف يصبح متعذرا . غير ان كلايتون كان متفائلا على الدوام .

وفي صباح يوم ١١ يناير شق كلايتون وشو وكرايتون ستيوارت ومعهم العقيد دي اورنانو طريقهم الى مرتفع يبعد اربعة أميال عن هدفهم ، وأخذوا يدرسونه بمناظيرهم المكبرة ، فشاهدوا الطريق الرئيسي القادم من «هن» يختفي ملتويا بين اشجار النخيل الكثيفة التي تبعد عن البلدة مسافة ميل واحد . وشاهدوا فيه المسجد الابيض ، والى اليسار شاهدوا أعمدة اللاسلكي الموجودة في الحصن ثم سقف احد الحظائر الكبيرة للطائرات . كما شاهدوا بحر مرزوق وكثبانه البيضاء يمتد حتى نهاية الافق . وكان كلايتون يفضل ان يكون أقرب الى هدفه حتى يستطلعه جيدا . ولكـــن الاقتراب اكثر من ذلك كان متعذرا . فقد قرر ان يهاجم هدفه على الفور، ووزع المهام على رجاله ، فكان على «بالنتين» النيوزيلندي ان يقود الدورية (ت) عدا ثلاث سيارات ويهاجم المطار . وعلى الدورية (ح) ومعها السيارات الثلاث من حملة الدورية (ت) ان تهاجم الحصن . وفي الساعة الثانيةعشرة والنصف بعد ان تناول الرجال وجبة غداء خفيفة تحرك الطابور الى الامام وعلى رأسه بالنتين النيوزيلندي . وعندما وصلوا الى حزام النخيل وقع في قبضتهم احد راكبي الدراجات النارية . وعندما حملوه فوق السيارة تبين ان السيد كولوشيا موظف البريد . وعلى بعد ٣٠٠ ياردة من الحصن شاهد النيوزيلنديون الحرس الايطالي وهو يخرج منه ، فأطلقوا عليهم النيران من مدافعهم الرشاشة ثم اتجهوا الى اليسار فوق الطريق المؤدي الى المطار . وجاء دور الدورية (ح) تحت قيادة كرايتون استيوارت ، فساروا بسياراتهم في حماية المرتفعات المحيطة ، وبعد ان نزلوا من السيارات ، بدأوا فـــي اطلاق النيران . وكانت القوة النيوزيلندية تهاجم من اليسار ورجال الحرس يهاجمون من اليمين في شبه قوس وبذلك تمكنوا من عزل الحصن عـــن

الطريق الرئيسي والمطار . وعند اللحظة الاولى من اطلاق النـــار أصابت مدافع البفرز سيارة تتجه بسرعة الى باب الحصن الرئيسي ، واخـــذت المدافع الرشاشة تحدث الاصابات بالجنود الايطاليين المتجهين نحو بـــاب الحصن ، ثم انضم النقيب الفرنسي ماسو مع جنـــوده الى النيوزيلنديين الذين ركز الايطاليون عليهم نيرانهم. وأصيب العريف النيوزيلندي«هيوسن» برصاصة في قلبه بينما كان يوزع رجاله على مراكزهم . وقام كرايتـــون استيوارت باحضار مدافع البفرز وأمر رجاله باطلاقها على قاعدة ساريات اللاسلكي خارج الحصن ولكن بدون نتيجة ، فقام مارتن جيس نائب قائد الدورية (ح) من رجال حرس الكولدستريم باحضار مدافع المورتار ٢ بوصة الى ٢٠٠ ياردة ، من الحصن ، وبدأ في اطلاق قنابله من فوق أســـوار الحصن . وبالطبع ، لم يكن يمكنه مشاهدة ما يصيبه . ولكن ، بعد دقائق ارتفعت اعمدة من الدخان الاسود من المبنى الاوسط للحصن وتبعتها أعمدة من اللهب التهمت العلم الايطالي المرفوع فوق الحصن . وقبل ان تنطفىء النيران كان الايطاليون قد جلبوا مدافعهم الرشاشة واخذوا يطلقونها. ووجد المهاجمون انفسهم تحت وطأة هجوم شديد من المدافع الرشاشة ورصاص القناصة الذي يُطلق عليهم من ناحية البلدة .

وفي خلال ذلك ، كانت الدورية (ب) قد شنت هجومها على المطار ، ولاول وهلة لم يتمكن بيل شو قائد الدورية من تحديد الحظيرة الرئيسية ، فقبض على احد السودانيين الذي كان يقف امام كوخه وحمله الى العربة. ولكن الرجل المسكين ، لشدة ذعره ، لم يمكنه الكلام ، غير ان ذلك لم تعد له اهمية ، فقد ظهرت حظائر الطائرات وشاهدوا الحرس يعدون الـــى مدافعهم الرشاشة ، ولحسن الحظ تمكنت السيارات من ان تسبقهم اليها. فسلم الحراس انفسهم عدا واحد ، فأطلقوا عليه النار فمات لفوره . وفي تلك اللحظة جاء بات كلايتون في سيارته مسرعا وقد ملأت السيارة ثقوب الرصاص التي أطلقها عليه ايطالي شجاع اكثر من غيره ، فقتل العقيد «دي أورنانا» وهو جالس بجواره . وللحظ العاثر ، كان مدفعا السيارة قد عطل مدفع الفيكرز في اللحظة الحرجة . ولم يكن هناك مناص من محاولة الالتجاء الى مكان آمن . وحاول كلايتون ان يدمر الحظائر باطلاق نيران مدافـــع البيفرز عليها . وقبل مضي وقت طويل ، ظهر ايطالي فوق المبنى وهو يلوّح بعلم ابيض . وبذلك . فان الحراس العشرين كانوا على استعداد للتسليم، فقاد كلايتون رجاله الى داخل الحظيرة ، فوجد فيها ثلاث قاذفات قنابل من

طراز «جبلي» ومستودعا محمولا للوقود ، فجمع كلايتون الاسرى وأمرهم بصب البترول على الطائرات التي وجد لدهشته انها مسلحة بمدافع لويس، وهي مدافع بريطانية . وفي تلك اللحظة ، وصلت رسالة من كرايتـــون ستيوارت تقول ان الحامية في الحصن ما زالت تقاوم ، فقرر كلايتون ان هدفه الرئيسي هو تدمير الطائرات والحظائر وقد تم ذلك ، فعليه ان يقوم بالانسحاب . وكنت اشارة الانسحاب المتفق عليها ، هي اطلاق مشعل ابيض يطلق بواسطة صاروخ . غير انه أضطر الى اطلاقه عـــدة مرات قبل ان يستطيع كرايتون ورجاله رؤيته . وكانت الساعة قد اصبحت الرابعة بعد الظهر . واشتد اطلاق النيران من الحصن ، وزادت حدتها حتى أصبح من الصعب عليه ان يدور حول النقاط التي احتلها رجاله لكي يأمرهم بالانسحاب وفي تلك اللحظة ساعدته ريح عاصفة اتخذ منها ستارا وسرعان ما انضمت الدورية (ح) الى كلايتون في المطار . وقدم كرايتون ستيوارت تقريره بأن احد رجال الحرس قد جُرح في قدمه وثلاثة مـــن النيوزيلنديين أصيبوا بجراح خفيفة وهذه كانت كل ألاصابات بالاضافة الى مقتـــل الرقيب «هيوسن» . ثم شكلت الدوريات طابورا واحدا وعادوا الى الهضبة التـــي غادروها منذ اربع ساعات . وهناك ، دفنوا العقيد «دي اورنانو» والرقيب «هيوسن» واطلاق النيران ما زال مسموعا من ناحية الحصن . وعنـــد الغروب ، كان المغيرون يتجهون صوب الجنوب الشرقي ، وقطعوا اثني عشر ميلا قبل ان يقيموا معسكرهم لقضاء الليل .

وكانت نتيجة الغارة هي تدمير ثلاث قاذفات قنابل وحظيرتها ، وتدمير المنشآت ومخازن الوقود . والحقوا بالعدو ثلاثين اصابة واستولوا على اربعة مدافع رشاشة . أما من ناحيتهم ، فقد قُتل الاثنان السابق ذكرهما ، وجُرح اربعة . غير ان النقيب ماسو كشف عن رجله فوجدت رصاصة قد اخترقت فخذه تاركة حفرة مستوية ولم تكسر العظم او تمسه ، واكتفى النقيب بتطهير الجرح بسيجارة مشتعلة ولم يشأ ان يشغل وقت الطبيب بهذا الجرح التافه في نظره .

وفي صباح اليوم التالي ، تحركت القوة خلال ضباب الصباح متجهة شرقا ، والرجال ينظرون بقلق ناحية الافق الشمالي . خوفا من ظهـــور الطائرات المعادية . ولكن لم يحدث شيء وبعد فترة ، وصل الطابور الى مقربة من قرية «تراجن» التي يوجد بها حصن صغير . وهناك ارسل كلايتون اسيرا ايطاليا ليهدد قائد الحصن بأنه ان لم يستسلم فى بحر عشرين دقيقة.

فسوف يبادر باطلاق نيرانه . ولمدة عشرة دقائق او أكثر ، ساد الصمت ، ولكن سرعان ما سمعت صيحات وصوت قرع الطبول . وجاء موكب خارجا من الحصن ، يتقدمه عمدة البلدة وفرقة البلدة الموسيقية ، وبوقار ، أعلن العمدة تسليمه . وتقدم كلايتون ومعه جماعة صغيرة الى داخل الحصن حيث وجدوا مدفعين رشاشين وعددا من البنادق وكميات من الذخيرة ، مع كمية كبيرة من المستندات وبعد ان أشعلوا النار في كل شيء لم يمكنهم اخذه ، اتخذ الطابور طريقه عبر الصحراء متجهين الى بلدة «أم الارنب» على بعد ۲۰ ميلا الى الشرق التي عرفوا ان بها حصنا اكبر ، ومعدات لاسلكية ولكنهم عندما وصلوها ، كانت الحامية قد أنذرت ولم يكن في نيتهم التسليم وبعد تبادل اطلاق النيران ، ترك المغيرون البلدة لان من الحكمة ، بعد ان شاع نبؤهم ان يسرعوا جنوبا متجهين الى تشاد .

ولم تكن رحلتهم الى تشاد رحلة سهلة ، فقد قطعوها في ارض لم يسبق لهم ان استكشفوها . وكانت الرحلة وطبيعة الارض هي أشق ما صادفه رجال «مجموعة الصحراء بعيدة المدى». وقال «كرايتون ستيوارت» يصف الطريق من سهل تخترقه الوديان: تقدمنا عبر أخاديد وعرة تملؤها الصخور ولم نستطع الخروج منها الا بعمل شاق . فكنا نضع الاحجار المسطحة فوق بقع الرمال الناعمة الممتدة بين الطريق الحجري ، وندفع بالسيارات واحدة بعد الاخرى . لقد كانت بلادا موحشة وخيالية ، وكان من الواضح انها لا تصلح لسير السيارات .

وفي ۱۹ يناير وصلت القوة الى نقطة الحدود الفرنسية عند بلـــدة «زووار» وعسكروا في منخفض لم يسبق أن عسكرت فيه سيارات قط . وفي البلدة ، شاهدوا حصن «ماسو» واقفا شامخا فوق الاكواخ التـــي يسكنها الاهالي . وقبل غروب الشمس خرجت حامية الحصن المكونة من الجنود السنغاليين وقاموا باستعراض تحت العلم الفرنسي والعلـــم البريطاني . وحيوا رجال الدورية (ح) وهي تتخذ طريقها الى داخل الحصن.

ولم تكن البلدة تتمتع فقط بتوافر كميات المياه الكافية للاستحمام لا لمجرد الشرب فقط . بل كان هناك عشاء من لحم الضأن للجنود ، ونبيذ ، ووجبة من سبعة أصناف لعشاء الضباط .

وهكذا ، انتهت العملية الاولى ، ولكن سرعان ما وصلتهم رسالة من باجنولد يقول فيها **«ارسلوا تقريرا على الفور عن عدد السيارات الصالحة للانضمام الى الفرنسيين في هجومهم على واحة الكفرة»** .

وفي اليوم التالي ، وصل باجنولد بنفسه ، واستقل بطائرة وبصحبته بيلشو قاصدين القيادة الفرنسية في بلدة «فورتلامي»، وهناك عقد اجتماعا مع العقيد «ليكليرك» واتفق الاثنان على ضرورة ان يبدأ العمل فوراً .

وفيما بعد ، أصبح اسم «ليكليرك» اسما ذائعا . وانه من المستحق ذكره وتقديمه للقراء . فهو ضابط فرسان في الجيش العامل ، وخريج كلية «سان سير» الحربية . وعند اندلاع الحرب العالمية الثانية كان برتبة «نقيب» . طويل القامة حسن الشكل ابيض اللون وله صوت أخاذ ويملك قوة القيادة والسيطرة ، وقد خلقته الظروف التي أحاطت باحتلال فرنسا. وكان في الحقيقة من النبلاء فهو «الكونت هوت كوكيه» وجُرح في معركة فرنسا وأسر . ونجح في الهرب الى احد القصور التي يملكها اقارب له . ومن هناك سافر على دراجة الى ساحل القنال الانجليزي حيث تمكن من عبوره الى انجلترا حيث انضم الى الجنرال «ديجول» الذي أرسله الى «الكاميرون» في افريقيا لينظم حركة المقاومة ضد حكومة فيشي . ومن الكاميرون نقل الى تشاد . اما الجنود تحت قيادته ، فهم من العساكر الوطنيين تحت قيادة ضباط وضباط صف فرنسيين ، وجميعهم من المحاربين الاقوياء . غير ان مشاكل تموين قواته كانت كثيرة . فأية سيارة تقع في يده يستولي عليها كي يوفر قطع الغيار اللازمة للمدافع . ولم يستنكف عن البحث في أكوام المخلفات بغية الحصول على ما يفيده في تجهيز قواته واعدادها للحرب .

اما رئيس أركان حربه فهو النقيب «جيليبون» وهو رجل طويل القامة، نحيف الجسم وضابط نشط يستطيع ان يقرأ أفكار قائده بسهولة . وقد لعب دورا هاما في الاحداث التالية .

ومن اجل الاعداد لمعركة الكفرة ، توفّر لدى العقيد «ليكليرك»ماية جندي فرنسي و٣٠٠ من العساكر الوطنيين . وكان ما يملكه من سلاح هو ٤ مدافع رشاشة ثقيلة و٢٠ مدفع رشاش خفيف ومدفعين من طراز ٣٧ مم واربع مدافع مورتار ومدفع محمّل عيار ٧٥ مم .

اما بخصوص وسائل النقل ، فكان لديه بعض السيارات البدفورد وخليط من اللوريات المستولى عليها محليا . كما سيكون تحت قيادته الدوريتان (ت) و (ح) من «مجموعة الصحراء بعيدة المدى» . الذين كان عليهم ان يعملوا كحرس مقدمة خلال الحملة . وعليهم ان يستطلعوا واحة العوينات حيث وضع العدو حامية عسكرية هناك . وعلى القوة ان تغادر بلدة

«فايا» القاعدة الاساسية لقوات ليكليرك في يوم ٢٦ يناير . ويتخذوا الطريق المؤدي الى بلدة «اونيانجا الكبيرة» التي اختارها ليكليرك كقاعدة امامية ، وهي تقع على بعد ١٢٥ ميلا الى الشمال الشرقي . ومنها الى «سارة» ثم «بشارة» ثم الى الكفرة هدفهم الاخير .

وكانت قوات الفرنسيين الاحرار في ذلك الوقت تملك مزايا عديدة ، غير ان الاحتياط والحذر لم يكونا من بينها . فقبل مغادرة القوة لبلـــدة «فايا» كانت التحيات المتبادلة في شوارعها هي «الى اللقاء في الكفرة» . ولاحظ الايطاليون ازدياد الاتصالات اللاسلكية في المنطقة ، ولم يكن لديهم شك في ما سوف يحدث فوضعت الحاميات كلها على أهبة الاستعداد وبدأت طائراتهم بالاستطلاع المستمر عبر الصحراء .

وبدأت العملية بداية غير سعيدة : فقد بدات السيارات الفرنسية تعاني من الاعطال الميكانيكية بسبب وعورة الارض . وفي اليوم التالي هبت عاصفة رملية عنيفة وقد أدى ذلك الى تعطيل الفرنسيين . وتقدمت قوة «مجموعة الصحراء» في طريقها مارّة بعديد من السيارات المعطلة التي تجمّع الرجال حولها لاصلاحها . وحتى بالنسبة لاولئك المرسين على السير في الصحراء كانت الاحوال سيئة . وعلى كل فانه عند حلول المساء وصلوا الى منخفض محمي من هبوب الرياح تتوسطه بحيرة وعلى الجانب البعيد من البحيرة كان يقبع حصن «أونيانجا» .

وفي صباح يوم ٣١ يناير ، قام كلايتون مع الدورية (ب) باستطلاع «جبل شريف» وهو نقطة الحراسة الامامية للقوات الايطالية ويقع على بعد ٦٠ ميلا جنوبي الكفرة . ولم تكن القوة المرافقة لكلايتون تزيد عن ١١ سيارة و٤٤ رجلا ، وقد تقدم بسرعة حتى وصل الى البئر الموجود عند «بشارة» فوجده مدمرا وآثار سيارات حديثة حول البئر . فقرر ان يتحرك ناحية الشمال ويخفي قوته بين سلسلة من التلال . ووصلوا الى واد صخري حيث امر كلايتون رجاله بتوزيع السيارات واخفائها ، غير انه لم يمض وقت طويل حتى اكتشفهم الايطاليون ، وشاهدوا سيارات «السرية الصحراويـــة الميكانيكية» من الايطاليين وهي تزمجر قادمة نحوهم . وكانوا في سبـــع سيارات تعاونهم ثلاث طائرات . وأطلق الايطاليون نيرانهم على الفور من المدافع الرشاشة ومن ٤ مدافع من طراز «بريدا» وهي من احسن الاسلحة في الجيش الايطالي . وقبل ان يتحرك كلايتون دمرت ثلاث سيارات من مركباته ، فحاول ان يتصرف بدون تسرع وأمر قوته بالانسحاب الى الجنوب،

حتى يمكنه شن هجوم مضاد . غير ان الطائرات هاجمته وجُرح كلايتون وتعطلت سيارته ولم يكن لديه الخيار ، فاضطر الى تسليم نفسه . وفي سيارة اخرى كان يقودها جندي نيوزيلندي ومعه رجلان من رجال الحرس جُرح الاول في عنقه .. وراكب رابع وهو ميكانيكي اسمه «تيج» كان يعاني من اصابة داخلية . واتجهوا بسيارتهم بعيداً عن المعركة غير ان الطائرات هاجمتهم واخذت القنابل تنفجر فتركوا السيارة عدواً الى بعض الصخور ليحتموا فيها ..

ومن بين الصخور اخذوا يراقبون الايطاليين وهم يبحثون بين مخلفات المعركة ، غير ان احدا منهم لم يتجه ناحيتهم . وعندما هبط الليل وهـم يرتعدون من البرد في اقمصتهم ناقشوا موقفهم والطريق الذي يتبعونه . فاما ان يتجهوا الى الكفرة على بعد ٧٠ ميلا الى الشمال ويسلموا انفسهم ، او يتتبعوا آثار السيارات المتجهة الى الجنوب لمسافة مائتين او ثلاثماية ميل ويأملون في ان يلتقطهم احد . ورأى مور وهو القائد الطبيعي للجماعة ، ان يتخذوا الطريق الثاني . وبعد مناقشة ، اتفقوا على رأيه . ولحسن حظهم امكنهم ان يلتقطوا من بين حطام السيارة صفيحة ماء سعة ٢ جالون غير انه لم يكن هناك حطام ، وان قصة هؤلاء الرجال الاربعة تصور بجلاء ، المصاعب التي كانت تواجه رجال «مجموعة الصحراء» او اي احد يعمل في الصحراء وهي قصة تستحق ان تروى بشيء من التفصيل . والحوادث مأخوذة من اوامر آلاي الحرس الاسكتلندي المؤرخة ١٧ ابريل ١٩٤١ .

فتحت قيادة مور ، بدأوا رحلتهم الشاقة وهم يحملـون كل بدوره صفيحة الماء . وفي ذلك اليوم حلقت طائرة ايطالية فوقهم غير انها لـم تلاحظهم .

وفي اليوم الثالث عثروا على وعاء من المربّى زنته ٢ رطل سقط من احدى السيارات في رحلتها نحو الشمال . فأكلوا المربى كلها في ذلـك اليوم . وفي اليوم الرابع ظهر التعب الشديد على «تيج» . وفي اليـوم الخامس طلب من زملائه ان يتركوه خلفهم حتى لا يعوقهم . وقبل ان يتركوه ، اعطوه نصيبه مـن الماء في زجاجة عثروا عليها .

وفي اليوم السادس ، هبت عاصفة رملية شديدة ، غير ان «مور» و«ايستون» و«ينشستر» وهم الثلاثة الباقون امكنهم ان يتتبعوا آثـار السيارات في الرمال التي كادت تختفي لهبوب العاصفة حتى وصلوا الى بلدة «سارة» وهناك امضوا بعض الوقت للراحة في كوخ متهدم . ولم يجدوا

طعاما . وببعض البترول الذي وجدوه امكنهم غسل أرجلهم واشعال النار لتدفئتهم في الليل . فقد قطعوا في رحلتهم ١٣٠ ميلا على الاقدام .

وفي اليوم التالي واصلوا رحلتهم الى «تكرو» التي تبعد ١٠٠ ميل . غير ان آثار السيارات في الرمال التي يتتبعونها في سيرهم قد اختفت من فوقه مساحات طويلة من الطريق . وبذلك عانوا مشقة كبيرة في تتبعهم للطريق الصحيح .. أما «تيج» الذي أمكنه ان يعيد مواصلة سيره خلال اليوم السابع فأمكنه ان يصل الى الكوخ عند هبوط الليل . غير انه كان شديد التعب لمواصلة السير .

وفي مساء اليوم التاسع عثرت دورية فرنسية قادمة من استطلاع مراكز العدو في الكفرة على «تيج» عند «سارة» وهو لا يزال مالكا لوعيه . وكان اول ما فكر فيه هو ذكره لزفقائه الثلاثة وانهم سبقوه على الطريق ، فنظمت على الفور جماعة للبحث عنهم . غير ان الجماعة لم تكن موفقة في تتبع آثارهم في الليل . وفي نفس اليوم ، شاهدت طائرتان فرنسيتان «مور» و«وينشستر» وقد فرغ الماء منهما و«ايستون» يواصل طريقه في الخلف متتبعا لهما . فأسقطت الطائرة بعض الطعام وزجاجة من عصير الليمون . وهو كل ما كان في الطائرة . غير ان مور ووينشستر لم يلاحظا الطعام وانفتحت سدادة زجاجة عصير الليمون وانسكبت على الرمال ولم يبق فيها سوى سنتيمتر واحد في أسفلها . وبعد ذلك واصل كل منهما طريقه بمفرده ، مور يسير في المقدمة ووينشستر يتابعه وهو نصف مغمى عليه . وأخيرا ، وفي اليوم العاشر ، وجدت احدى جماعات البحث «ايستون» على بعد ٥٥ ميلا من سارة ، ووينشستر بعده بحوالي ١٢ ميلا، وكل منهما لم يعد في استطاعته مواصلة السير وقد تمددا على الرمال منهوكي القوى .

ثم عثروا على مور على بعد ٧٠ ميلا من سارة و٢١٠ ميل من نقطة بدء الرحلة وهو لا يزال مواصلا سيره في خطوة عسكرية ويحرك ذراعيه وهو في حالة عقلية سليمة وطبيعية ، وحياهم عند رؤيتهم دون ان يتوقف كما لو كان يحيي احد معارفه اثناء سباق للمشي .

ومن اجل قيادته الحكيمة وشجاعته ، منح مور ميدالية السلوك الممتاز . اما رجل الحرس جون ايستون الذي مات من جرحه بعد انقاذه فقد ذكر اسمه في التقارير الحربية .

ونعود مرة اخرى الى الدورية بعد ان أسر كلايتون ، فقد انتقلت

القيادة الى النقيب «بالنتين» الذي قرر انه بوجود سيارتين مدرعتين مع العدو . فانه لا يمكن مواصلة الاشتباك وقاد الناجين لينضموا الى رجال الدورية «ح» وليكليرك . وبعد عقد مؤتمر قصير ، قرر ليكليرك ان يُعد قاعدة مؤقتة في «تكرو» وأن يرسل رجال مجموعة الصحراء الى القاعدة الاساسية . مع ارسال دورية قوية لاستطلاع الكفرة ، واتفق على ان يسحب «بالنتين» ومعه احدى سيارات الدورية القوة كدليل . وباقي السيارات ارسلت الى القاهرة .

ووصل ليكليرك الى الكفرة في ٧ فبراير ، واشتبك مع حاميتها تلك الليلة . وبينما هاجمت جماعة صغيرة المركز الاداري للواحة في «جيوف» قاد النقيب الفرنسي ثلاث سيارات الى المطار واشعل النار في طائرة وجدها . وادى اشعال النار الى ايقاظ الايطاليين الموجودين في الحصن فاخذوا يطلقون النار بغزارة في الظلام ويطلقون مشاعل اشارة خضراء . ولسوء الحظ كانت المشاعل الخضراء هي المتفق عليها مع الاحتياطي الفرنسي للقوة لكي يتقدم . ولدهشة النقيب «جيلبون» شاهد اثنتي عشرة سيارة واضواؤها مشتعلة تقبل هادرة مزمجرة على الواحة . وسرعان ما انغرست السيارات في الرمال الناعمة . وحدثت الفوضى بينما استمر الحرس الايطالي يطلق النيران حتى استهلك جزء كبير من ذخيرته ..

وعلى كل ، فقد اعطت عملية الاستطلاع هذه «ليكليرك» معلومات كافية لكي يشن هجومه الرئيسي .

وفي ١٧ فبراير تحرك بقوته الى الامام من قاعدته في «سارة» وسرعان ما تعرض لهجوم من قبل سرايا الصحراء الميكانيكية الايطالية ، غير ان التفكير السريع من قبل النقيب «جيلبون» أفسد عليهم مناورتهم ، وعند المساء انسحب الايطاليون الى «تازربو» . وادى ذلك الى تحول الحوادث لمصلحة ليكليرك : حيث ان انسحاب القوة الميكانيكية ادى الى اغلاق الايطاليين الحصن على انفسهم ونزول اليأس بهم . وبعد مواصلة اطلاق النار عليهم من المدافع الفرنسية عيار ٧٥ مم أصبحوا على استعداد لمناقشة شروط التسليم . وفي ٢٨ فبراير خرج جندي ليبي من الحصن يحمل علما ابيض فأخذوه الى مقر قيادة ليكليرك . وقد أبلغ الجندي رسالته وهي ان الجرحى من الفريقين يوضعون في مكان محايد لا تطلق عليه النيران . وقد اجاب ليكليرك انه لن يبحث ذلك ، الا مع ضابط ايطالي يحضر بنفسه . وفي الساعة الرابعة من بعد الظهر ، حضر احد الضباط الذي اعاد الطلب

بخصوص الجرحى ثم أضاف قائلا : **«وبالنسبة لمعلوماتي الشخصية ، هل يمكن ان أعرف شروط التسليم ؟»** .. وتحقق ليكليرك بذلك من ان العدو على وشك الانهيار ، فأمر قواته بتشديد وطأة الهجوم ، كما امر الضابط المشرف على المدافع عيار ٧٥ مم ان يضاعف من قوة اطلاق النيران . وقد ادى ذلك العمل الى ظهور النتيجة المطلوبة . فعند الفجر من يوم اول مارس شاهد ليكليرك العلم الابيض علامة التسليم يرفرف فوق سارية الحصن ، وبعد ساعة ، انتقل بسيارته الى الحصن ، حيث وجد الحامية المكونة من ٦٤ جنديا ايطاليا و٣٥٢ جنديا ليبيا مصطفة في فناء الحصن ، ومعهم اسلحتهم المكونة من ٥٣ مدفع رشاش و٢٠ مدفعا من طراز «بريدا» وكان باستطاعتهم ، بهذه الاسلحة ان يقاوموا لعدة اسابيع لو كانت عندهم الشجاعة والعزم على القتال . غير انهم كانوا في رعب من الجنود السنغاليين من المستعمرات الفرنسية والتمسوا من ليكليرك ان يبعد هؤلاء عن الحصن . وقد وافق ليكليرك ووضع احد رجال الدين ، وهو القسيس الفرنسي ، الاب «برونر» على باب الحصن كحارس . وتكملة للمسرحية الهزلية ، والجو الذي تمت فيه ، كانت آخر برقية ارسلها قائد الحصن الى قيادته ووجدت في مكتبه ، وهاك نصها : **«نحن قد أوشكنا على النهاية . عاشت ايطاليا — عاش الملك الامبراطور ، عاش الدوتشي . روما . أرسل لك تحياتي»** .

وقد سيطر الايطاليون على الكفرة لمدة عشر سنوات وأربعين يوما . غير ان حكمهم انتهى بذلك الى الابد . وبالنسبة لـ «مجموعة الصحراء» ، فقد اصبحت لديها قاعدة هامة جدا لمباشرة العمليات منها في الشهور الطويلة القادمة .

وخلال يناير وفبراير من تلك السنة ، كان تقدم ويفل الظافر ما زال مستمرا في برقة . فقد سقطت طبرق ودرنة وبارك وبنغازي واجدابية واخيرا العقيلة . ودمرت ثماني فرق ايطالية تدميرا تاما مع عدد كبير من الطائرات ، وتمكن ويفل بفرقتين من ان يأسر ١٣٠ الف ايطالي ويستولي على ٨٥٠ مدفعا و٤٠٠ دبابة بالاضافة الى مئات من السيارات . وهو نصر كامل قل ان يوجد له مثيل في التاريخ العسكري . ولم يكن لدى ويفل وقت للراحة ، فقد توصلوا الى قرارات هامة في لندن . فالجناح البريطاني يجب الا يمتد لابعد من بنغازي وعليه ان يرسل التعزيزات الى اليونانيين المهددين بالهجوم من قوات المحور . ولتعقيد الموقف اكثر ، ظهرت بوادر على ان هتلر قد خطط للاشتراك في حرب شمال افريقية ، وراجت

الشائعات عن وصول قوات المانية الى ليبيا يطلق عليها اسم «الفيلق الافريقي» تحت قيادة الجنرال روميل ، واصبحت الشائعات حقيقة . ففي يوم ٣١ مارس ، قبل ان يعتقد اي من الطرفين المتحاربين انه على استعداد لاشتباك جديد ، اشتبك روميل بقواته مع البريطانيين في العقيلة ، وبحركة تقدم سريعة دفع بقوات ويفل الى الخلف نحو الحدود المصرية . فروميل يملك دبابات متفوقة ومدافع مضادة اثقل مما يملكه البريطانيون ومن الواضح انه عدو خطير اكثر من الماريشال جرازياني . وهو كذلك قائد يعرف الحرب السريعة الحركة . وبذلك تصبح مهام «مجموعة الصحراء» اكثر صعوبة ازاء تفوقه وخاصة لزيادة قوة طيرانه . ولحسن الحظ صمدت «طبرق» ولم تسقط ، وبذلك قرر روميل انه ليس من الحكمة التقدم الى ما وراء الحدود المصرية ، كما بقي مكانان في قبضة البريطانيين وهما واحتا الكفرة وجغبوب . وتقع جغبوب شمال بحر الرمال الاعظم وعلى بعد ١٥٠ ميلا جنوب السلوم .. ومن «جغبوب» وسيوة التي تبعد ١٠٠ ميل ناحية الشرق حملت مجموعة الصحراء بجزء من قوتها . وأما باقي القوة فقد بقي في الكفرة حيث تولى العقيد باجنولد قيادة الحامية .

وكان صيف ١٩٤١ شديدا بالنسبة لمجموعة الصحراء ، فقد استهلك جزءاً من قواهم أمداد الكفرة بحاجتها من التموين . لان قوة دفاع السودان التي كان عليها القيام بهذه المهمة ، لم تكن تدرك الظروف المحيطة . وحتى شهر يوليو عندما حلت القوة محل مجموعة الصحراء في حراسة الواحة. أصبحت دوريات باجنولد حرة في التجول ثانية . وظهرت مشاكل اخرى. فنائب القائد الذي وصل اخيرا ، رأى انه يلزم ان تكون لدى المجموعة طائراتها الخاصة حتى تعمل بنجاح . وبدأ في مناوشة سلاح الطيران للحصول على ما يريد . غير ان المسؤولين في سلاح الطيران عزموا على ابقاء كل الطائرات تحت سيطرتهم ، مما حمل نائب القائد على ان يطلب من الجيش ، وليس من سلاح الطيران ، شراء طائرتين من طراز «واكو» من المصريين . وفي اغسطس ، تولى نائب القائد المسمى «برتن جاست» القيادة بدلا من باجنولد الذي أصبح عقيدا يشغل منصب نائب قائد سلاح الاشارة في الشرق الاوسط .

ولم تكن مجموعة الصحراء في هذه الفترة خاملة ، فقد قامت الدورية (ب) باستطلاع صحراء «سرق» وهي الصحراء المتدة بعد «واحة العجيلة». وقامت دوريات اخرى بمراقبة الطرق ، وارسل الضباط في دوريات

تدريبية لدراسة الملاحة في الصحراء . فقد بدأ الجيش يتحقق من اهمية دراسة الملاحة لان كثيرا من القوات كانت اذا توغلت في الصحـــراء ضلت الطريق بعكس دوريات مجموعة الصحراء . وتولى «متفورد» قيادة دورية عبر بحر كلانشو لاستطلاع «واحة جالو» والاراضي المحيطة بها ، وتم القيام بدوريات عديدة من هذا النوع ، وهو عمل ثبتت فائدته رغم خلوه من المغامرات . وعند انتهاء الصيف كانت القوة تنتظر لتلعب دورها فـــي الهجوم المقبل . غير انه هناك في القاعدة ، عقدت عدة مقابلات واجتماعات اثرت كثيرا في عمليات المجموعة . فقد ادت هذه الاجتماعات الى الدخول في اهم المراحل الشائقة في حرب الصحراء .

الفصل الثالث

الرجل القادم من اسكتلنده

في صباح يوم من ايام شهر يوليو سنة ١٩٤١ ، شق رجل طويل القامة أسود الشعر طريقه الى مدخل القيادة العامة للقوات البريطانية في الشرق الاوسط بالقاهرة ، ولما كان يعوزه جواز المرور للدخول ، فقد احتال على الحراس حتى أمكنه الدخول . ومضى في سيره داخل القيادة مخترقا احد الممرات ، وأقتحم غرفة احد الضباط من أركان القيادة برتبة الرائد. وقدم الرجل نفسه بعد ان اعتذر عن سلوكه وقال للرائد ان اسمه «دافيد سترلنج» وانه من آلاي الحرس الاسكتلندي ويعمل مع فرقة الكوماندوز رقم ٨ ، ويود أن يقابل القائد العام للشرق الاوسط الجنرال أوكتلك الذي حل حديثا في القيادة محل الجنرال ويفل .

غير ان الضابط الذي لم يرتح الى سلوكه وطباعه ، رفض ان يعاونه في مقابلة القائد العام . او حتى ان يستمع الى أفكاره . ثم دق جرس التليفون الموضوع على مكتب الضابط من حرس البوابة الذين ذكروا ان احد الضباط قد دخل الى مقر القيادة بدون تصريح . وبينما كان الرائد منهمكا في تلقي المكالمة ، انسحب سترلنج خارج الغرفة الى الممر وأخذ ينظر الى اللافتات الموضوعة على الغرف الممتدة على طول الممر . فوجد على احداها لافتة مكتوب عليها (د.س.ح.س) ولم تكن هذه الكلمات تعني شيئا بالنسبة

له . فدخل الغرفة فوجد الرجل الجالس فيها غير غريب عنه . فلقد كان هو الجنرال نيل ريتشي نائب رئيس الاركان لقيادة الشرق الاوسط . وفي نظام الجيش البريطاني يعتبر الدخول الى غرفة في القيادة ، بدون سابق دعوة ، شيئا غير عادي . وان مثل هذا الدخول يعتبر شيئا لم يسمع عنه، ولو كان سترلنج رجلا ، عاديا ، لقام على الفور بالاعتذار وانسحب غير انه كان كما هو ، فقد قام بتقديم نفسه الى القائد معتذرا عن اقتحامه عليه غرفته . غير انه اصر على ان لديه أمورا هامة يريد ان يعرضها .

وسادت فترة صمت بين الرجلين . وعرف كل منهما ان الآخر اسكتلندي . ولعل الجنرال احس بروح القيادة والسيطرة في شخصية سترلنج . فقد طلب منه الجنرال الجلوس ، وبدأ الحديث بينهما . وأخرج سترلنج من جيبه بعض المذكرات واخذ يشرح بسرعة للجنرأل فكرته . انه يود ان يقضي على قوات روميل الجوية على الارض وانه يستطيع ان يفعل ذلك بتشكيل قوة من الرجال المختارين ثم يسقطهم بالباراشوت من الطائرات خلف خطوط العدو قبل الهجوم التالي الذي ينتوي البريطانيون القيام به .. فتناول ريتشي المذكرات منه وأخذ يقرؤها باهتمام وانتهى من قراءتها ورفع راسه اليه وقال له ان ما ورد في مذكراته ربما هو ما تبحث عنه القيادة العليا في الشرق الاوسط وانه بعد بحث الخطة بتفاصيلها ، فسوف يستدعى سترلنج لمناقشة اخرى .

وللصلات العائلية في الجيش البريطاني اثرها . فالارتباطات بين الاسر لها فعلها القوي . وقد قام «ريتشي» بعمل بعض التحريات عن سترلنج . وجاءت هذه التحريات في صالحه .. فقد تبين انه من عائلة عريقة وقد حارب أجداده على الحدود بين انجلترا واسكتلندة لعدة قرون . وله اخوان في الحرس الاسكتلندي واخ آخر يعمل سكرتيرا ثالثا في السفارة البريطانية في القاهرة . وقد كان يسره لو علم انه قبل الحرب كان دافيد سترلنج يعد نفسه ليكون اول رجل يصل الى قمة جبل-افرست في الهند . وان الجراحات التي اصابته كانت نتيجة لحادث وقع له اثناء هبوطه بالمظلة . فقد اشتبك الباراشوت الذي يرتديه بذيل الطائرة التي قذف نفسه منها فأدى ذلك لسقوطه بسرعة اكبر من اللازم وأصيب في ظهره وساقيه . وهو الان في طريقه الى الشفاء . غير ان الوقت الذي قضاه في المستشفى ترك له فرصة التفكير ، وكلما زاد من تفكيره وتعمق فيه ، زاد اقتناعه بأن تشكيل قوة الكوماندوز التي يتبعها كبيرة العدد اكثر من اللازم وبطيئة السرعة .

وان الحاجة تدعو ألى تشكيل وحدات الكوماندوز من أعداد أقل بكثير وأن تكون الوحدة قادرة على التحرك بسرعة . فهي تنهي عمليتها في ساعة او اكثر ثم عليها ان تنسحب بسرعة . فاذا نجحت الغارة فان خسارة العدو تكون كبيرة ولو فشلت فان ألخسارة تكون تافهة . وهذا استخــــدام اقتصادي في القوة لا يمكن التفكير في احسن منه .

وقد اقتنع الجنرال اوكنلك بالفكرة ومما زاد في اقتناعه انه تعرض لضغط من تشرشل في ان يشن هجوما سريعا ضد العدو قبل ان يستكمل استعداداته . ولذا ، فانه بعد ثلاثة ايام من مقابلة سترلنج للجنرال ريتشي وجد سترلنج نفسه في القيادة نتيجة لاستدعائه وهناك ، أعطـــوه الاذن بالبدء في العمل .

فقام به بتجنيد ستة من الضباط وستين رجلا ووضعهم في معسكر للتدريب في منطقة قناة السويس . وتقرر ان تكون وحدته هذه ، تحت قيادة القائد العام مباشرة ، وان يكون واجبها الاول ، هو الاغارة علـــى المطارات ألالمانية المتقدمة قبل ان يشن الجيش البريطاني هجومه في شهر نوفمبر . كما تقررت ترقية سترلنج الى رتبة «النقيب» وأطلق على قيادته اسم الوحدة «ل لخدمة الطيران الخاصة» والفكرة في ذلك هي خداع العدو وإيهامه بأن وحدات من جنود المظلات قد وصلت ألى الشرق الاوسط . وقد شرح لسترلنج هذا القائد العام نفسه وعندما انتهت المقابلة ، صافح الجنرال اوكنلك سترلنج ، وتمنى له حظا سعيدا في مهمته . وبعد ذلك ، توجه سترلنج لمقابلة مدير المخابرات الحربية ثم ألى رئيس أركان الامداد والتموين ورئيس أركان الافراد والمعدات ، لكي يناقش معهم متطلباته من الرجال والمعدات والتموين ويعرف آخر الانباء عن العدو . ولم يرحب هـــؤلاء بسترلنج كثيرا لانه من ألعادة ان ينظر رجال الحرب المحترفون ، الى مثل هذه الوحدات الخاصة ، نظرة الشك والريبة والحسد ، لما يصحب العمل في هذه الوحدات من فرص للدعاية والترقي ، غير متوافرة في الوحدات النظامية العادية . ومن ناحية اخرى ، لما يعتقدونه من ان مثل هـــذه التشكيلات تستهلك الكثير من المعدات واللوازم اكثر بكثير مما يقدر لها من نجاح . وكان سترلنج على علم بهذه المشاعر . ولذلك فانه لم يندهش عندما اخبره المسؤول عن المهمات انه لا توجد خيام لنوم رجاله وان عليه ان ينتظر دوره . ومن الواضح ان عليه ان يشاكس في سبيل الحصول على متطلبات الوحدة . ولحسن الحظ فان تبعية الوحدة لقيادة القائد العام رأسا ، أدت

الى الاهتمام بتوفير حاجته من اي مكان وإلا ، تدخَل القائد العام بنفسه . وبذلك ، كرّس سترلنج وقته لاختيار الرجال الذين سيكوّنون وحدته . وبعكس ما توقع ، لم يجد صعوبة في الحصول عليهم . فقد تطوع الكثيرون، وقد اختار منهم من شعر بلياقته للخدمة معه ، فاختار من الضباط «جول لويس» وهو جندي شجاع ومثقف ومنظم من الطراز الاول . ثم اختار رجلا ارلنديا هو «ماك جويجال» وضابطين من الانجليز اسمهما «بونجتن» و«توماس» واسكتلنديا اسمه «بيل فريزر» كان ابوه وجده من ضباط الصف في فرقة «ألجوردون هايلاندرز» وهي من الفرقة الاسكتلندية . واخيرا اختار «بادي مين» وهو لاعب رجبي دولي ايرلندي ذو جسد هائل. وقد كان وقت اختياره تحت الحجز التحفظي لضربه قائدا له . وقد قبل التطوع عندما علم ان هناك فرصا لضرب العدو .

وأقاموا معسكرهم في «كبريت» وهي قرية تقع على البحيرات ألمرة في منطقة القنال ، وكان المعسكر يحتوي على ثلاث خيام ، اثنتين لنوم الرجال والثالثة ، وهي الاكبر ، لخزن المؤن والمعدات ، مع اضافة بعض المناضد وقليل من ألمقاعد وهذا هو كل ما يحويه المعسكر . ومثله في ذلك ، مثل اي معسكر في منطقة القنال باستثناءات صغيرة . مشاركا في الجو العام للمنطقة من حرارة شديدة وتراب كثير وذباب اكثر والصحراء القاحلة المحيطة بهم .

غير ان سترلنج لم يكن في نيته ان يبقى على هذه الحال ، وعلى هذا المستوى من المعيشة، فقام بعملية استكشاف لمعسكر ممتلىء بالمعدات يخص القوات النيوزيلندية ، ويبعد عنه أميالا قليلة . وكان المعسكر خاليا يحرسه قليل من الحراس الهنود . فقام بشبه غارة على ألمعسكر وكانت الغارة هي العملية الاولى للوحدة موفقة للغاية وأسفرت عن الاستيلاء على خمس عشرة خيمة وكميات كبيرة من الاثاث والمعدات ، كان من بينها بيانو . وفي خلال ساعات ، كان سترلنج صاحب اجمل معسكر في المنطقة .

اما المهمة التالية ، فهي ألتدريب . ومن البداية أوضح سترلنج انه رغم ان العمليات المفروضة عليه غير نظامية ، فان شيئا لن يخرج عن النظام في التدريب والاستعداد او السلوك العام . كما نبه عليهم انهم اذا ذهبوا الى القاهرة في اجازة ، فلا مجال اطلاقا للحديث او التفاخر بعملهم . ويجب عليهم ان يظهروا قوتهم في حالة صدامهم مع العدو . واصبح جانب كبير من التدريب مسألة روتينية ، مثل التدريب على البنادق المضادة للدبابات

وقراءة الخرائط واطلاق النار وفك الإسلحة واعادة تركيبها ومنها اسلحة العدو من طراز بريتا الايطالي وسمشر الالماني . والى جانب ذلك قام بتدريب ليلي لهم في الصحراء وبكافة الوسائل المتاحة له حاول زيادة القوة البدنية وطاقة الاحتمال عند رجاله وزيادة سرعتهم في الرد على ما يقابلهم من مخاطر . فالرجال الذين يفزعون من المآزق ، لم يكن لهم مكان عنده . وجاء بعد ذلك التدريب على الهبوط بالمظلات . وقتل رجلان منهم عندما لم تنفتح مظلتاهما ، وبالرغم من ذلك ، فان هذا الحادث المؤسف ، أعطى سترلنج الفرصة لكي يظهر شجاعته . ففي اليوم التالي ، كان هو اول من قفز بالمظلة خلال التدريب .

ومن أوائل نوفمبر والايام التالية شغل الاستعداد للغارة الاولى كل تفكيره واهتمامه . والخطة كانت تقضي بالاغارة على خمسة مطارات للعدو في المناطق الامامية ، وهكذا يستطيع ان ينزل الخسائر بقوات روميل المقاتلة من الطائرات . وبالطبع ، ظهر عديد من المشاكل ، لم يكن أقلها اختيار نوع المتفجرات المناسبة . وكيف يمكن لجماعة صغيرة في العدد ، ان تحمل معها المتفجرات الكافية والقنابل اللازمة لتدمير كل الطائرات وآلاتها؟ وبعد مناقشات طويلة، اتفق على ان الجواب الوحيد هو صنع قنبلة تستطيع ان تؤدي الوظيفتين معا . وجاء احد الخبراء من القاهرة ، وقال ان التجارب التي يجب ان تتم قبل استخدام مثل هذه القنابل ، قد تستغرق شهورا او سنين ، مما جعل سترلنج يغلي بالغضب. ورحل خبير المفرقعات وأصبح من الواضح ان الوحدة اذا ارادت قنبلة خاصة ، فيجب عليها ان تصنعها بنفسها . وبدأ «جول لويس» محاولاته ، وبعد اسبوعين من التجارب الفاشلة ، وصوت المفرقعات المزعج ، نجح في صنع قنبلة توقيت لا يزيد وزنها عن رطل . غير انها من القوة بحيث تستطيع ان تدمر اية طائرة . وقد قدّر ان الرجل يستطيع حمل دستتين من هذه القنابل ، اي ٢٤ قنبلة . وبذلك ، فان القوة التدميرية للوحدة كانت عظيمة . هذا اذا وجدوا الطائرات التي يدمرونها .

وكان الرأي في القاهرة ، اي عند القيادة العامة ، باستثناء القائد العام أوكنلك والجنرال ريتشي ، ان تنفيذ مثل هذه العمليات غير ممكن . وخلال فترة التدريب ، كان ضباط الجيش وضباط سلاح الطيران يحضرون الى المعسكرات في كبريت ويعلنون دهشتهم مما يرونه ويتساءلون كيف تمكن سترلنج من اقناع القيادة العامة بفكرته الجنونية . فهم لا يتصورون

حدوث ذلك . وقالوا أن من ألواضح أن قوته في الاقناع ، لا بد ان تكون اكثر بكثير من معلوماته العسكرية .

غير ان سترلنج لم يهتم ، وكان النقد من جانب القيادة العامة يزيد من تصميمه وعزمه . وحدث مرة ، بعد ان تفوه عقيد في سلاح الطيران الملكي ببعض التلميحات الجارحة ، أن تحداه سترلنج على رهان بأن في مقدوره ان يشن غارة على مطار هليوبوليس وان يضع بطاقات على الطائرات الموجودة فيه بدلا من القنابل .

وقد وضعت الخطة بعناية ، واشترك فيها ٤٠ رجلا ، ووصلوا الى المطار ، بدون أن يلاحظهم احد ، وقاموا بلصق ٤٥ بطاقة على الطائرات ، ثم انسحبوا دون ان يراهم احد . وقد دُهش العقيد ، واضطر الى ان يرسل الى سترلنج شيكا بمبلغ عشرة جنيهات هي قيمة آلرهان، ومع الشيك خطابا يقرر ان الدفاع عن المطار ، يجب أن ينظر في تحسينه . وقد أدى ذلك الى زعزعة الثقة في نفوس ضباط الامن الخاصين بالمطار ، غير ان سترلنج كان كل ما يهمه ، هو اثبات صحة نظريته .

وجاء الوقت للتحرك من التدريب الى ميدان المعركة ، فالهجوم الذي سيقوم به اوكنلك لطرد روميل من برقة وتخليص «طبرق» من الحصار المضروب حولها ، كان محددا له ان يبدأ في ١٨ نوفمبر عند فجر ذلك اليوم من سنة ١٩٤١ . وقد تقرر ان تقوم وحدة «خدمات الطيران آلخاصة» التي يقودها سترلنج بالهجوم على خمس مطارات في منطقة «الغزالة ـ التميمي» وذلك قبل الهجوم بأربعوعشرين ساعة الذي سوف يشنه الجيش البريطاني. واسقط الرجال بالمظلات خلال الليل . وخلال يوم ١٧ نوفمبر ، كان عليهم ان يختفوا اثناء النهار في المرتفعات الصخرية التي تمتد من الساحل الى الجنوب ، وعليهم ان يراقبوا هدفهم . وعندما يحل الظلام ، فعليهم ان يتوجهوا الى المطارات ويشقوا طريقهم خلال الاسلاك الشائكة المحيطة ، ويضعوا قنابلهم وينطلقوا في الصحراء لمقابلة محددة مع الوحدة (أ) من «مجموعة الصحراء بعيدة المدى» الذين عليهم ان يحملوهم في السيارات الى القاعدة في واحة «سيوَه» .

غير ان الخطة لم تكن سهلة كما يبدو ، فالعملية تحتاج الى استعدادات كثيرة ، وهي اول عملية اسقاط بالمظلات في الصحراء ، وحزم القنابل وكبسولاتها المفجرة والبنادق والذخيرة وتجهيزها للاسقاط من الطائرة تطلبت الكثير من الجهد .

وساءت الأحوال الجوية يوم ١٦ نوفمبر وتوقع المتنبئون الجويون ان المطر سوف يسقط خلال الثمانية والاربعين ساعة القادمة . وزاد هبوب الرياح وسرعتها . ولو أسقط رجال سترلنج في مثل هذا الجو ، لنزلوا متفرقين ، وليس في مكان واحد كما هو مطلوب وتبعثرت معدّاتهم وقد يُجرح او يصاب بعضهم ، ونصحوا سترلنج بتأجيل التنفيذ ، فما كان منه الا ان قاد سيارته الى حيث توجد الطائرات التي سوف تقله مع رجاله ، وحيث ينتظره الضباط تحت قيادته وناقش معهم الموقف ـ فلو تأجلت العملية ، لكان موضع السخرية والنقد من ضباط القيادة العامة . ولو أقدم عليها وفشل فيها ، فسيكون موضعا لنقد شديد وغير كفؤ وأفكاره لا تساوي شيئا . غير ان الضباط التابعين له قالوا انه اذا تأجلت العملية فان ثقتهم سوف تهتز وان الظروف المثالية في الحرب غير متوفرة تماما ، وأنه يجب الا ينتظروا . وإلا اضطروا الى الانتظار للابد . وقرر سترلنج البدء بالعملية.

وفي تمام الساعة السابعة والربع زأرت محركات الطائرات الخمسة من طراز «بومباي» واخذ الرجال يصعدون اليها . وكان هناك الى جانب سترلنج الضباط «ماين» و«لويس» و«ماك جونيجا» وفريزر وتوماس . ولم تكن الرحلة مريحة ، فقد تمدد الرجال على ارض الطائرة وحشدت معداتهم ناحية الذيل . وقليل منهم كان يتكلم وحاول البعض الاخر النوم .

وقامت قيادة القاذفات بتنظيم اسقاط المشاعل على طول الساحل لمعاونة الطائرات في معرفة طريقها . غير ان العاصفة التي هبت لم تترك شيئا يمكن رؤيته من خلال الغبار الذي أثارته . وزاد الامر صعوبة أن الطائرات اضطرت الى التحول عن خط سيرها لتجنب المدافع المضادة . وبدأ سترلنج يسائل نفسه هل ستنتهي العملية على خير ام سوف تكون هباء ؟..

وجاء الانذار من رقيب الطيران بأنهم سوف يكونون فوق الهدف بعد ست دقائق . وفتحت الابواب واندفع الهواء البارد الى داخل الطائرات مما جعل كل فرد على أهبة الاستعداد . ومرت الدقائق متثاقلة . اربع دقائق على الوصول .. ثم دقيقتين .. ثم دقيقة واحدة .. وأضاء النور الاخضر اشارة للقفز .. وتقدم سترلنج بضع خطوات ثم قفز من الطائرة . وبسرعة، تبعه باقي الرجال . وخارج الطائرة كان الظلام حالكا ومن الصعب معرفة وقت الوصول الى الارض . وسقط سترلنج بدون تحذير سقطة قوية أغمي عليه بسببها ، وأفاق بسرعة فوجد نفسه مجرورا بواسطة المظلة فوق الارض . فخلص نفسه منها قبل أن ينقلب على ظهره . وفحص أطرافه فلم

يجد شيئا مكسورا ، فوقف على قدميه وبدأ يشعل بطاريته . ومرت فترة دون ان يستجيب لاشارته احد . واستغرق جمع رجاله ساعة ، عدا واحد، لم يعثروا عليه، وعلم من الرجال ان غالبيتهم جرحوا او أصيبوا بسحاجات. ومن بين عشر اسطوانات تحتوي على المؤن لم يجدوا سوى اثنتين وكانتا تحتويان كمية من البطاطين وزجاجات الماء والطعام ونصف دستة من قنابل لويس ولكن بدون مفجرات وبذلك اصبحت الوحدة عديمة القوة . وبذلك ارتكب سترلنج اول أخطائه .

ولم تكن هناك فائدة من البقاء حيث هم ، وقرر سترلنج ارسال القوة الى مكان اللقاء مع «مجموعة الصحراء البعيدة المدى» بينما توجه هو والرقيب «تيت» الى الشمال ناحية الطريق الساحلي . فهو ان لم يستطع ان يدمر الطائرات ، فعلى الاقل ، يمكنه ان يقوم بشيء من الاستطلاع . وكان يعتقد أن الطريق لا يبعد اكثر من عشرة أميال غير انه اتضح ان الوحدة قد هبطت ابعد من ذلك جنوبي الطريق . ولم يصلوا الى المرتفعات حتى الساعة الرابعة والنصف صباحا .. وفي الخامسة والنصف بدات تمطر وهو منظر غير مألوف بالمرة لهذه المنطقة . وسرعان ما امتلأت الوديان بالمياه. ووجد الرجلان نفسيهما يسيران في ماء يصل الى فخذيهما . وكانت تعزيتهما الوحيدة انهما لن يشعرا بالعطش ولن يعثر عليهما احد . وساءت أحوال الجو وأصبح من المتعذر القيام بأي استطلاع ، وأضطر سترلنج الى الاتجاه ناحية الجنوب للذهاب الى المقابلة المحددة مع «مجموعة الصحراء بعيدة المدى» . وعندما وصل الى المكان ، وجد «جاك ايسونميث» و«فريزر» و«جول لويس» مجتمعين حول نار أشعلوها . وقد حدث لهم ما حدث لسترلنج ولم يحققوا شيئا . وعندما وصل «بادي مين» وقص قصته كانت في مثل قصتيهما مثيرة للشفقة . ولم يظهر احد من الجماعات الاخرى .

وبعد ان انتظروا يوما ونصف، قرر سترلنج ان يتجه الى سيوة . ومن بين سبعة ضباط وخمسين رجلا بدأوا العملية ، لم يبق سوى اربعة ضباط وثمانية عشر رجلا . وبدلا من ان يثبت نظريته امام القيادة العامة ، وجد نفسه امام مشكلة . غير ان اليأس لم يتطرق لنفسه ، لان العملية رغم نتيجتها السلبية ، قد علمته كثيرا . فقد استطاع ان يصل الى خلف خطوط العدو ، ورأى كيف تعمل مجموعة الصحراء بعيدة المدى . فقد حملوا الناجين مسافة ٢٥٠ ميلا عبر الصحراء الى سيوة بدون صعوبة . واذا استطاعوا ان يحملوه هو ورجاله بعد الغارة ففي استطاعتهم ان يحملوه الى

مكان غارة اخرى . كما تعلّم ان استخدام الهبوط بالمظلة في مثل هـــذه العمليات غير عملي . ولكن السؤال هل تتعاون معه «مجموعة الصحـــراء بعيدة المدى !» .

وادت مناقشاته مع بعض ضباطها الى امكان ذلك . وقرر احد رجال مجموعة الصحراء وهو «كندي شو» ان هذه الزمالة بين «مجموعة الصحراء» و«رجال خدمة الطيران الخاصة» كانت مثالية ، فنحن نستطيع ان نستغل مقدرتنا الكبرى . وهي امكاننا نقل اي فرد الى ما وراء خطوط العدو في اي وقت . وكان لتدريب رجال «خدمة الطيران الخاصة» لعدة اسابيع مـــع «مجموعة الصحراء» قد جعل منهم رجالا مهرة في التسلل الى الاماكن التي يريدونها ليلا ثم الانسحاب منها .

ووجد سترلنج نفسه في مأزق ، فهو يدرك انه لا يستطيع ان يطلب امدادات زيادة من أوكنلك ، فالقائد العام وأركان حربـــه كانا مشغولَين بالاعداد للهجوم المقبل وفي حاجة الى كل الضباط والجنود الموجودين . كما كان عليه ان يختار قاعدة متقدمة عن قاعدة «كبريت» . وعاد سترلنـــج بالطائرة الى القاهرة ، وكان روميل قد أعاد تنظيم قواته واوقف تراجعه . وبسرعة ، حرك جيشه حول جناح الجيش البريطاني ، وعندما وجد اوكنلك ان الجنرال كننجهام لا يستطيع مواجهة الموقف ، ارسل الجنرال ريتشي بدلا منه لتولي قيادة الجيش الثامن .. وسرعان ما تقدم الجيش الثامن . وبعد بضعة أيام ، تمكن سترلنج من مقابلة الجنرال ريتشي في قيادتـــه الامامية . وقد شعر بالارتياح عندما علم انه رغم فشله ، لم تكن هناك نية لدى القيادة للاستغناء عن وحدته . ولم يكن هناك لدى القيادة الوقت لاعطائه أوامر جديدة . وهكذا ، ترك سترلنج ليدبر امره بنفسه . وكان هذا ، هو ما يرغب فيه .

وفي خلال اسابيع ، كان سترلنج قد نقل وحدته الى واحة جالو ، حيث اتخذ منها قاعدة ، وهي واحة تقع في الشمال الغربي من بحر رمال كلانشوة . وكانت ، بالطبع ، تقع خلف خطوط العدو بمسافة طويلة . غير ان بُعدها عن الشريط الساحلي ، حيث يدور القتال الرئيسي ، جعل منها قاعدة مأمونة . ولو تخيل الانسان مثلثا ضخما طول كل ضلع من أضلاعه ٢٠٠ ميل وتقع بنغازي على راسه في الشمال ، وتقع طبرق على اليمين ، كما تقع جالو نحو الجنوب . ولم تكن جالو فيها ما تُحمد عليه ، فالمـــاء الموجود فيها مالح ، ولا يوجد بها الا حصن تحيط به الاكواخ واشجـــار

النخيل لا يمكنها مداومة البقاء الا بصعوبة . وقد استولى البريطانيون على المكان في ٢٤ نوفمبر بواسطة طابور طائر يتألف من اللواء الثاني من البنجاب والآلاي السادس من السيارات المدرعة التابعة لجيش جنوب افريقيا تحت قيادة العميد «ريد» . ورغم ان الطعام والوقود كانا قليلين ، فقـــد رحب «ريد» بسترلنج وجماعته ووضعهم في قائمة التعيينات كما انتقل الـــى الواحة كذلك ، الضابط «دون ستيل» والدورية «أ» من مجموعة الصحراء بعيدة المدى وأصبح من الممكن البدء بالعمليات الجديدة ، وأصبح الموقف ملائما كل الملاءمة .

الفصل الرابع

الغارات من واحة جالو

وخلال ديسمبر ١٩٤١ ظل روميل في تقهقره . وكانت خطته هـــي العودة الى اجدابية والعقيلة وبذلك سلم البريطانيين مشكلة خطوط التموين الطويلة . ورغم ان قواته أصيبت بخسائر فقد كانت ما تزال متماسكـــة وقادرة على القتال . وكان من الحكمة في اية لحظة ان يعيد تجميع قواته ويقوم بضربة مفاجئة خاطفة .

وفي أوائل ديسمبر ، أخبر «ريد» سترلنج ان لديه أوامر بأن يتحرك الى الشمال الغربي من جالو ، ويعمل على الاتصال بالعقيد «ماريوت» ولواء الحرس الثاني والعشرين . وكانت الحركة جزءا من خطة كبرى لكي يمسكوا بروميل وهو يتراجع ناحية بنغازي . ولسوء الحظ ، فان ريد اضطر الى التوقف لقلة المؤن والوقود . وكان يبدو انه لا يستطيع البدء في تحركه قبل يوم ٢٢ ديسمبر . وأشتد قلقه خوفا من الطائرات في مسافة العشرين ميلا الاخيرة ، فقد تعرضت طوابيره لهجوم المقاتلات الالمانية والايطالية واستفهم من سترلنج عما اذا كان في استطاعته الاغارة على المطارات الموجودة في اجدابية قبل بضع ساعات من تحركه في ليلة ٢١ ــ ٢٢ ديسمبر ، فوافق سترلنج على ان في استطاعته مع «بادي مين» وعشرة رجال ان يغيروا على

مطار «سرت» الذي يقع بعيدا في الغرب على مسافة ١٧٠ ميلا من العقيلة و٣٥٠ ميلا من «جالو» . وعلى «جول لويس» ان يتجه بقوته الى العقيلة بعد ذلك بيومين . وبعد ذلك بثمانية ايام ، على «بيل فريزر» ان يقود الغارة على مطار اجدابية كما طلب العميد «ريد» . ولو نجحوا في غاراتهم فسوف يلحقون بالقوات الجوية الالمانية ضربة قاصمة حيث ان «سرت» كانت تعد من اكبر مطارات روميل .

وفي ٨ ديسمبر ، غادر سترلنج وجماعته واحة «جالو» وقام بنقلهم «جسي هولمان» مع الدورية الروديسية . وكان هولمان الذي عمل قبل ذلك في سلاح الدبابات قد مضت عليه سنة وهو يعمل مع «مجموعة الصحراء بعيدة المدى» . وقام بعدة رحلات صحراوية طويلة ونقل البترول لمسافة ٤٠٠ ميل من وادي حلفا الى «الجلف الكبير» من اجل العمليات التي تمت جنوبي الكفرة .

وكانت القوة التي شكلها سترلنج عددها ٣٢ رجلا بين ضابط وجندي، محملة في سبع سيارات ممتلئة بالمؤن والمعدات من البترول والطعام والماء. والرجال يجلسون حيث وسعهم الجلوس بين هذه الاكوام . وفي السيارة الاولى ، كان يوجد «هولمان» و«ميركل سادلر» الملاح الروديسي ويتبعهما سترلنج في السيارة الثانية .. ومر اليوم الاول بدون حوادث وعند الغروب ، ضربوا مخيمهم ، ومن الراديو ، علموا ان روميل ما زال عند «الغزالة» وان الجيش البريطاني ينظم نفسه لمعاودة التقدم . واستمرت رحلتهم عبر الصحراء لمدة يومين آخرين ولم يحدث شيء سوى بعض الاعطال في السيارات قاموا باصلاحها . والصحراء المحيطة بهم بقيت هادئة وخالية ، ولم يروا احدا من الاعراب المتجولين دواما فيها .

وفي اليوم الحادي عشر ، عندما اصبحوا على بعد ٦٠ ميلا جنوبي «سرت» بدات الامور تتغير . فأصبحت الارض صخرية والسير عليها صعب. وعند الظهر ، قرر «هولمان» ان يبحث عن ملجأ وان يتوقف لتناول الغداء ولكي يعطي «سادلر» الفرصة لكي يتحقق من مكانهم . وفي تلك اللحظة ، حلقت فوقهم طائرة ايطالية من طراز «جبلي» والقت عليهم قنابلها ، ولم يصبها شيء من وابل النيران التي أطلقوها من مدافع اللويس .

وتصرف «هولمان» بسرعة ، وأعطى الاوامر للقوة بأن تسرع الى مجموعة من الاعشاب الشوكية على بعد أميال منهم وان يحاولوا الاختباء بينها . ولم تكن الاعشاب طويلة لتخفيهم ، غير ان السيارات وزعت بينها ونشرت فوقها

شباك التمويه. وبذلك ، قلّ ظهورهم بعض الشيء . وعرف الرجال ان الطائرة مزودة بجهاز ارسال لاسلكـــــي ، وان لم يتمكنوا من اسقاطها ، فسوف تُرسل اشارة الى القاعدة ، وسرعان ما تصل اليهم قاذفـــات القنابــل .

وجاءت القاذفات ، وعددها ثلاثة ، وأطلقت من مدافعها الرشاشة على المكان الذي هم فيه ، ثم اخذت تسقط القنابل ، الواحدة بعد الاخرى . وخيل للناظر من صوت الانفجارات والغبار المتطاير ، ان الاصابات بين رجال القوة ، كبيرة . وعندما عادت القاذفات الى قاعدتها ، شعر سترلنج بالخلاص عندما وجد انه لم يُجرح احد ، وان السيارات لم يصبها تلف ما .

وبعد ساعتين ، قرر «هولمان» ان الوقت قد حان للتحرك مرة اخرى. وتقدم الطابور فوق ارض مسطحة تعترضها بعض كثبان الرمال والارض السبخة ، وعند الساعة الرابعة والنصف قرر «سادلر» انهم أصبحوا على بعد ٤٠ ميلا من «سرت» كثبان الرمال والارض السنحة ، وعند الساعة الرابعة والنصف. وقال «هولمان» انه بعد حوالي الساعة ، سيحل الظلام وان عليهم ان يقصدوا مرتفعا من الارض على بعد ثلاثة أميال من الساحل . ومن هناك يستطيع سترلنج ورجاله ان يراقبوا هدفهم .. وان رجـــال «مجموعة الصحراء بعيدة المدى» سوف يعودون الى الجنوب متوغلين في الصحراء . وما كادوا ينتهون من قرارهم هذا ، حتى ظهرت طائرة اخرى ، اخذت تحلق فوقهم . وكان من رأي هولمان ان الوقت متأخر بالنسبة للطائرة لكي تتصل بالقاعدة لاحضار القاذفات . غير انها سوف تبلغ عن مكـــان وجودهم ، وما من شك في ان الايطاليين سيكونون على اهبة الاستعداد للقياهم .

وعندما حل الظلام ، كان الطابور لا يزال على بعد ٢٠ ميلا من الساحل وعليهم ان يستمروا في سيرهم بدون أضواء . وفي الساعة التاسعة مساء، عندما أصبح الهدف غير بعيد عنهم صدرت اشارة من السيارة الخلفية وأمر «هولمان» بأن تتوقف كل محركات السيارات ، وأخذوا يرهفون السمع . فتطرق الى آذانهم صياح أفراد وصوت عربات تتحرك على بعد . واعتقدوا بذلك انه نتيجة للاشارة التي أرسلتها الطائرة ، فقد أرسل العدو دورية استطلاع للكشف عن مكانهم وان فرصة مفاجأة الايطاليين قد ضاعت .

واتخذ سترلنج قرارا سريعا ، فعلى «مادي مين» ان يأخذ معه عشرة رجال لمسافة ٣٠ ميلا على طول الطريق الساحلي ، حتى يصل الى المطار

الموجود في «تميمي» ، وان عليه هو والرقيب «يروف» ان يتجهوا الى مطار «سرت» ليريا ما يستطيعان عمله . وبسرعة ، أطلعوا «هولمان» على خطتهم ، فوافق عليها . وتقرر تسيير ثلاثة سيارات لالتقاط كل جماعة ، ثم تنطلق بهم لمسافة ٨٠ ميلا داخل الصحراء الى نقطة للتجمع فيها وذلك بعد اتمام مهمتهم . وان ميعاد الغارتين يجب أن يكون عند الساعة الحاديةعشرة مساء ، وفي وقت واحد ، حتى لا ينتبه العدو اذا سبقت غارة الغارة الثانية .

وقام «هولمان» بإثارة أكبر ضجة ممكنة ، حتى يلفت أنظار العدو اليه ويبعده عن رجال الدوريتين ، ثم انطلق الى جوف الصحراء . واتجه سترلنج ويروف ناحية الشمال ، حيث يوجد المطار الذي قدروا انه لا يبعد اكثر من ثلاثة أميال ووصلوا اليه فجأة وسط الظلام بدون ان يقابلهم احد من الحراس او حواجز من الاسلاك الشائكة ووجدوا أمامهم صفوفا ، تتلوها صفوف من الطائرات ، وقاوموا الرغبة التي تملكتهم في ان يسرعوا بتدمير الطائرات . وقرر سترلنج القيام بعملية استطلاع اولا . وفي أثناء سيرهم اصطدموا بجنديين إيطاليين نائمين على ارض المطار ، فصاح الجنديان بأعلى صوتيهما ، وسرعان ما أطلق الحراس النيران في كل الاتجاهات . وأخذ رجال المدفعية يطلقون مدافعهم ناحية البحر ، وقد اعتقدوا ان الخطر القادم من الجنوب ما هو ألا لتحويل أنظارهم عن غارة يشنها الكوماندوز وتأتي من الشمال من ناحية البحر .

غير ان سترلنج ورفيقه لم يعيرا ذلك اهتماما ، وتوجها الى المرتفع المتفق عليه حيث خبآ نفسيهما بين الاعشاب ، ثم سقطا في نوم عميق . واستيقظا وقد علت الشمس في السماء . ومن مخبئهما ، أمكنهما ان يراقبا المطار الممتد أسفل منهما وشاهدا فيه ٣٠ قاذفة قنابل . وخلال ساعات الصباح ، كانت الطائرات تصل الى المطار ثم تقلع ، ولكن ما ان حل عصر ذلك اليوم حتى حدثت مفاجأة ، فقد اخذت الطائرات تقلع زوجين زوجين ، حتى اصبح المطار خاليا .

وسقط في يده ، ولم يستطع ان يفعل شيئا وكل ما فكر فيه هو ان يكون حظ «بادي مين» أحسن من حظه . واضطر الى الانتظار ست ساعات اخرى ، وفي جوف الظلام ، انحدر الرجلان من المرتفع حيث وصلا الى الطريق الذي وصلاه في الساعة الحادية عشرة مساء ، ولم تكن هناك حركة مرور على الطريق والليل هادىء ووادع .

ظهرت في الموعد المحدد بالضبط . وقبل ان يتجهوا الى ميعادهم مع «بادي مين» قام سترلنج بتلغيم الطريق . وكان مسرورا عندما شاهد سيارة ايطالية تدمر عليه من الالغام التي بثها . وسرعان ما اتجهوا جميعا ناحية الجنوب .

ومرت الساعة الثانية عشرة ، ولم يسمعا صوتا من ناحية «تامت» وأصبح مستقبله ومستقبل وحدته يتعلق بخيط واه اذا فشل في هذه العملية مرة اخرى . وفجأة شاهدا ضوءا ملتمعا شديدا ناحية الغرب ، يتبعه صوت انفجارات قوية واحدا بعد الآخر . وكان الصوت هو اجمل الاصوات التي سمعها سترلنج في حياته. وفي سعادة بالغة ، ظل ينتظر هولمان وسياراته .

ولم يصل «بادي مين» وجماعته الى المكان المتفق عليه ، الا في الساعة الحادية عشرة صباحا . غير انهم كانت لديهم انباء مفرحة . فقد وصلوا الى المطار عند «تامت» وتحسسوا طريقهم الى مجموعة من المباني . وفي داخل احداها سمعوا صوت أناس يتحدثون ويضحكون ومن المحتمل ان يكون المبنى هو «نادي الضباط» فقام «فلنجيج» بفتح باب المنتدى واطلق بادي مين نيران مدفعه الرشاش على الموجودين بالحجرة وانسحبوا بسرعة . وقسم رجاله قسمين أربعة رجال عملوا كحرس للمؤخرة لحماية باقي الجماعة من اي هجوم من ناحية المبنى . بينما توجه «سترلنج» مع خمسة رجال الى المطار حيث وضعوا القنابل في الطائرات وكان عددها ٢٣ طائرة . اما الطائرة الرابعة والعشرون ، فقد عطلوها بتحطيم اجهزة القيادة فيها . وحان وقت الهرب ، ولكنهم ما كادوا يبتعدون ٦٠ ياردة عن الطائرات ، حتى اخذت القنابل في الانفجار . ورأوا على بعد أضواء تشتعل وكان من الواضح انها اشارات جماعة «مجموعة الصحراء بعيدة المدى» طبقا لما هو متفق عليه . وفي الحقيقة ان الايطاليين كانوا يطلقون اشاراتهم كذلك .

وانطلق «بادي» ورجاله في طريقهم قبل ان يعرفوا حقيقة ما حدث . وزيادة في التأكد قاموا باطلاق عدة صفارات آملين ان يرد عليها . ولم يكن رجال «مجموعة الصحراء» بعيدين ، فوصلوا أليهم وقفزوا الى السيارات التي انطلقت بهم على الفور بعيدا عن صوت الانفجارات والطائرات المشتعلة متجهين الى الصحراء .

وفي جالو ، انتظر سترلنج عدة ايام حتى تعود باقي دورياته . وعندما عادت ، اتضح ان «جول لويس» خانه الحظ في هجومه على العقيلة التي

تبين فيما بعد ، انها نقطة انتقال . ولكن عندما عاد «بيل فريزر» من «اجدابية» كان قد حقق اكبر انتصار وهو تدمير ٣٧ طائرة على الارض . وفي رحلة العودة قابلوا العميد «ريد» وقوته من حرس الواحات الذين عسكروا في «وادي الفرج» خلال الليل . وكتب العقيد «ريد» في مذكراته يقول : **«عند اول ضوء للصباح ، حدث شيء من الانفعال بين الجنود الاماميين في المعسكر . فقتدت سيارتي لارى ما الخبر ، فوجدت «فريزر» من قوة «خدمة الطيران الخاصة» ، التابع لسترلنج . وسألته مستفهما عن اخباره فاجابني قائلا : «آسف جدا يا سيدي لقد تركت طائرتين على الارض دون تدمير لان المفرقعات فرغت مني . غير اننا دمرنا ٣٧ طائرة» . وكان هذا عملا رائعا بالنسبة لضابط واحد وثلاثة رجال . ثم علمنا فيما بعد ان روميل كان في اجدابية في تلك الليلة . ولا بد انه أصابه الصداع لما حدث» .**

وهذه هي رواية شاهد عيان . اما ما ورد في سجلات الحرب الرسمية وما عُرف عنها من تحفظ في الرواية ، فقد ورد في الجزء الثالث من كتاب «البحر الابيض والشرق الاوسط» أن ما حققه سترلنج في «تامت» و«اجدابية» كان تقديريا فقط . وفي التاريخ العسكري الايطالي الرسمي قرر السنيور «مانزتي» «ان الغارة البريطانية الثانية في افريقيا نتج عنها تدمير ١١ طائرة في «تامت» و١٥ في «أجدابية» . ورغم هذا الفارق الكبير في التقدير ، فان الغارات تعد نجاحا كبيرا . ولكن ليس هناك ما يدعو الى الشك في ألارقام التي قررها «فريزر» و«ماين» نتيجة لما قاما به تمكن العميد «ريد» من أن يتصل بلواء الحرس الثاني والعشرين دون ان تقذفه او تهاجمه الطائرات .

وفي مساء عيد الميلاد من تلك السنة ، كان سترلنج ومعه «بادي مين» في سيارات «هولمان» متجهين مرة ثانية ألى «سرت» و«تمت» . فقد كان واثقا ان العدو لا يتوقع هذه العودة السريعة . وتطبيقا للمثل السائد في الجيش البريطاني القائل «حاول دائما ان تزيد من نجاحك» عاد سترلنج مرة ثانية الى مكان الغارة السابقة . وبنوع من الحذر ، اتخذ الطابور خط سير جديد ابعد الى الغرب . وأنزلوا ماين وجماعته عند «تمت» ونزل سترلنج ومجموعته عند «سرت» وكان ملاّحهم في الرحلة هو الملاّح في الرحلة السابقة وهو «ميكل سادلر» الذي كان يكتسب شهرة متزايدة في انه احسن من يقود القوافل في «مجموعة الصحراء بعيدة المدى» . ورغم انه يعمل بخرائط قديمة ، كان دائما يقود قافلته الى المكان المطلوب . وقد

أعجب به سترلنج ورجاله كثيرا . وفي هذه الغارة كانت نقطة الانزال في «وادي تمت» وهو منخفض عميق يمتد من الشمال الى الجنوب . ومن الخرائط يوحى بأنه يعطي «ماين» ورجاله طريق اقتراب مستور الى المطار. وبعكس الرحلة السابقة لم تهاجمهم الطائرات . وعند الساعة التاسعة ، وصلوا الى بعد خمسة أميال من «تمت» نزل بادي مين ورجاله من السيارات . وهنا اقترح «هولمان» ان يصل الى الطريق الساحلي المرصوف، ويقودهم فوقه بجرأة الى «سرت» حتى يتمكن سترلنج من تنفيذ عمليته . وعندما وصلوا الى الطريق وجدوا فرقة مدرعة المانية تتحرك عليه متجهة بلا شك ألى العقيلة حيث بلغهم عن طريق اللاسلكي ان روميل يتمركز هناك. وكانوا مقتنعين ان الطريق بين «تمت» و«سرت» عبر الصحراء ، طريق وعر للغاية . وقال لهم هولمان ان عليهم ان ينتظروا مرور القوات الالمانية ، وانتظروا لمدة اربع ساعات ولكن ألفرقة كانت ما تزال تمر .. وعند الساعة الحادية عشرة مساء ، شاهدوا وميضا في السماء ناحية «تمت» واعقبته سلسلة من الانفجارات السريعة . وكان من الواضح ان «بادي مين» قد حقق نجاحا آخر . وفي الساعة الثالثة صباحا ، أنتهى مرور الطابور الالماني ، فصعد الرجال الى سياراتهم ، واخذت القوة المشتركة من رجال «مجموعة الصحراء» و«خدمة الطيران الخاصة» يسيرون فوق الطريق ويمرون بسيارات ألعدو ومركباته من مختلف الانواع وهي معسكرة على جانب الطريق . وقد توقعوا في كل لحظة ان يوقفهم احد الحراس ، ولكن ، لم يحدث شيء .. وفي الساعة الرابعة ، كانوا على بعد ميلين من «سرت» ومطارها . وشاهدوا وحدات مدرعة تعسكر على مقربة من المطار ، وعلى كلا جانبيه . وقرر هولمان ان هذا المكان ، هو مكان ألقاء . ونزل سترلنج ورجاله الخمسة من السيارات وتحركوا قاصدين المطار ، وليس أمامهم سوى ساعة واحدة قبل طلوع النهار . ولكسب الوقت ، قرروا ان يكون سيرهم فوق الطريق ، غير أن ذلك لم يتحقق ، فقد ظهرت امامهم عوائق منصوبة على الطريق وبدأ الحراس يعترضونهم وقرر سترلنج العودة الى نقطة اللقاء . غير انه كان مصمما على القيام ببعض عمليات التدمير . واقترح على هولمان ان يسير الطابور فوق الطريق ويطلقون ألنار على كل شيء يرونه. ورغم ان مثل هذا العمل خارج عن الغرض المقصود ، فقد وافق «هولمان» واستدارت السيارات واصطفت على ألطريق ومقدمتها متجهة ناحية الغرب . وفي ذلك الوقت كان الصبح قد بدأ يطلع وبدأ ضوؤه في الافق

وأي تأخير سيؤدي الى كارثة فانطلقوا بكل سرعة وهم يطلقون النيران على خيام المعسكرات والسيارات والجنود الذين يصادفونهم متجهين الى سياراتهم المشتعلة . وأطلقوا النار على سيارة وقود وخيام كثيرة اخرى . وزاد ضوء النهار وكلما ازداد ، زاد الخطر . ونادى هولمان بوقف اطلاق النار وترك الطريق ، وانحدر الى الصحراء ، ولم تتابعهم اية سيارة للعدو . وبعد وقت قصير ، كانت ألصحراء تلفهم في سكونها .

وعندما وصل «بادي مين» الى مكان اللقاء ، حمل معه مرة اخرى ، اخبارا سارة . فقد وصل الى المطار في «تمت» بدون مشاكل ، فوجد سربا من ٣٧ طائرة قد وصل لتوه من ايطاليا ، فوضع قنبلة في كل طائرة . غير ان القنابل المؤقتة التي تنفجر بعد ٣٠ دقيقة ، انفجرت بعد ٢١ دقيقة فقط . وانتهوا من عملهم بالكاد عندما بدات اولى القنابل تنفجر وقد تعرض سترلنج بسبب فشله الثاني ، لبعض الوخزات الخفيفة . ووافق على ان يستجمع شتات نفسه . اما وقد حققت وحدته انتصارها بتدمير ٨٨ طائرة للعدو ، فقد كان غير يائس ولا متشائم .

وبينما كانت الغارات على مطاري «تمت» و«سرت» تنفذان كان جول لويس و«بيل فريزر» يقومان بغارتيهما على مطاري «نو فيليا» و«ماربل آرش» اللتين تبعدان ٤٠ و ٧٠ ميلا بالترتيب عن غرب العجيلة. ومرت عدة ايام قبل ان تصل سترلنج اية اخبار عنهما . وعندما وصلت هذه الاخبار ، كانت سيئة . وحمل النبأ اليه الملازم «موريس» من قوة «مجموعة الصحراء» وحامل وسام الصليب الحربي . وقال أنه التقط «جول لويس» ورجاله بعد الغارة على مطار «نو فيليا» ثم اتجهوا شرقا لالتقاط «بيل فريزر» وجماعته. وأثناء الرحلة هاجمتهم الطائرات بشدة ودمرت خمس سيارات . وقتل «جول لويس» . وتابع موريس رحلته في السيارة الواحدة المتبقية الى نقطة ألمقابلة قريبا من «ماربل آرش» . غير ان بيل فريزر لم يحضر حسب الميعاد ولم تكن هناك دلائل تشير الى ما حدث له .

وقد أخبر الرقيب «ليلي» سترلنج عما أدى الى فشل غارة جول لويس.

فعندما وصلوا الى المطار لم يجدوا الا طائرات قليلة فيه ، وهي متناثرة بعيدة عن بعضها ، فقاموا بوضع قنبلة في الطائرة الاولى ، ثم انتقلوا منها الى الطائرة الثانية وما كادوا يضعون فيها القنبلة حتى انفجرت الطائرة الاولى . وعلى الفور امتلأ المكان بالجنود وسارعت القوة بالانسحاب غير ان الطائرات تتبعتهم الى الصحراء . وبعد اصابة جول لويس ، جاءت مقاتلتان

ودمرتا السيارات وظل الهجوم لعدة ساعات غير ان احداً آخر لم يصب . وأمكنهم ان يصلحوا سيارة واحدة بالاستعانة بما تبقى من باقي السيارات ، وببطء قادوها الى ميعاد اللقاء مع «بيل فريزر» .

ومرت عدة ايام قبل ان تعرف نتيجة غارة فريزر . فقد كان مع فريزر اربعة رجال هم الرقيبان «دي فيفير» و«تيت» والجنديان«بيرن» و«فيليب». وعندما وجدوا ان المطار في «ماريل آرش» مهجورا ، عادوا الى نقطة اللقاء الموضحة على خرائطهم وانتظروا فلم تصل السيارات وطال انتظارهم لمدة ستة ايام قبل ان يقرروا ان عليهم العودة ولو على الاقدام الى خطوطهم . وفي ذلك الوقت لم يتبق معهم من الماء سوى نصف صفيحة من الماء لكل رجل وطعام يكفي لمدة يومين . وولوا وجوههم شطر نقطة «هاسيليب» وهي موقع بريطاني على بعد ٢٠٠ ميل . وقد سجل الرقيب «دي فيفير»مغامرتهم في يومياته فقال :

«لقد سرنا طوال النهار ولم نعثر على ماء . ورغم الظمأ الذي شعرت به ، قررت ألا أشرب من الماء المتبقي معي ، لان مجرد سماعي لصوته في «الزمزمية» كان يساعد على رفع روحي المعنوية . وأحيانا كنت أبلل شفتي فقط لكي أرطب حلقي . وعندما قل الماء اكتفيت بمص حصوتين لكي أجعل ريقي لا يجف » .

وفي تلك الليلة ، ناموا ، وقد التف كل منهم في البطانية الوحيدة التي حملها . وفي صباح اليوم التالي ، بعد ان ابتلع كل منهم بضع لقيمات ، واصلوا السير وهم يأملون في حظ أحسن . ولكن اليوم مر دون العثور على ماء . ثم راينا على بعد ما بدا لنا كبحيرة داخلية على بعد ستة أميال نحو الجنوب الشرقي ، وبأمل متجدد ، أسرعنا في سيرنا . ووصلنا الماء في منتصف النهار . غير انه كان ماء مالحا لدرجة تعذر معها ابتلاع اية كمية منه . وفي يأسهم ، حاولوا اشعال النار لكي يقطرونه ولكنهم وجدوا انهم يستهلكون ماء اكثر في مجهودهم عن طريق العرق مما يأملون الحصول عليه عن طريق التقطير . ثم اقترح «بوب تيت» ان يستمر اثنان منا في عملية التقطير، بينما يتوجه الثلاثة الآخرون الى الطريق المرصوف ويحاولون الاغارة على احدى السيارات للحصول على الماء والطعام . ثم عملنا قرعة فبقيت انا والملازم فريزر وتوجه بوب وفيليبس وبيرن للحصول على الماء والطعام . ولم نصدق أعيننا عندما عادوا بعد منتصف الليل ومعهم صفيحتان من الماء الصافي البارد الذي حصلوا عليه باطلاق النار على سيارة المانية . واية

مأدبة تناولناها في تلك الليلة فقد صنعنا عشاء من لحم البقـــز المحفوظ والجبن والبسكويت والبلح المجفف ثم شربنا الشـاي . وفي تلك الليلة نمنا نوما عميقا ولم نستيقظ قبل منتصف النهار» .

وظل الرجال سائرين لمدة ثلاثة ايام متتالية حتى وصلوا الى «وادي الفرج» وعلى كلا جانبي الوادي كانت سيارات العدو معسكرة . وشاهدوا واحدة منها منعزلة بعض الشيء عن السيارات الاخرى فانتظروا حتى جاء الليل ثم اتجهوا نحوها مهتدين بالبوصلة . وعندما اقتربوا منها ، رسموا خطتهم ثم اخذوا في تنفيذها .

«وبإشارة متفق عليها ، اتجه الملازم «فريزر» الى كابينة السائق . بينما قمت انا وبيرن «ونحن مسلحان بالمسدسات من طراز سميث ووش» بتغطية «بوب» و«فيليبس» وهما يقومان بنزع جوانب السيارة ورفع الاغطية من عليها . وفي ثوان ، كنا قد أمسكنا بالجنود النائمين داخلها وأخرجناهم وهم يقاومون فوق الرمال . ولم يحاولوا القتال بل اخذوا يصرخون من اجل تركهـــم احياء . وقد ظنوا اننا مـــن الاعراب . ونلنـــا بعض المشقة في تهدئتهم . ولم نجد ماء في السيارة ووجدنا بعض الطعام وموقدا يشعل بالبنزين استولينا عليه . وقد خدعنا الايطاليين بأن قوة بريطانية كبيرة تحيط بهم ، وتركناهم وأتجهنا شرقا . وقد قدّرنا مكاننا انه واقع بين العقيلة و«مرسي البريقة» . وازداد بنا العطش واصبحنا جميعا منهوكي القوى ومتعبين وقررنا انهاء الرحلة بالسيارة» .

وعند ذلك ظهرت لنا سيارة مرسيدس ــ بنز قادمة ببطء على الطريق ناحيتنا ويركب فيها اثنان من الالمان . فقمنا بايقاف السيارة وتجريدهما من السلاح وهددنا السائق بوضع المسدس على عنقه ، واتجهوا الى ناحية مرسي البريقة وكانت مرسي البريقة تعج بالحركـــة والنشاط ، غير ان الجماعة مرت خلالها دون حادث غير انهم ضلوا الطريق الذي استخدموه في المرة السابقة . وانغرست السيارة بهم في ارض سبخة واضطروا الــى تركها وتركوا كذلك أسراهم أحرارا ، وكان لا يزال أمامهم ٤٠ ميلا حتى يصلوا الى أقرب موقع بريطاني وقد قطعوا هذه المسافة دون مشقة في مدة يومين .

وبينما كان «فريزر» وجماعته في طريق عودتهم ، كانت هناك جماعة اخرى تقطع طريقها في الصحراء . فعندما هاجمت القاذفات المنقضة من طراز «ستوكا» طابور «موريس» وهم في طريقهم الى نقطة التقائهم بفريزر .

وجدت جماعة مكونة من عشرة أفراد من «مجموعة الصحراء» يقودها «جنر ستوترد» وهو نيوزيلندي ، وجدت نفسها وحيدة في الصحراء مع ثلاث جالونات من الماء ، وتسعة ارغفة وصفيحة من الشيكولاتة المصنوعة للطوارىء . واتجهوا الى الشرق فهاجمتهم طائرتان من طراز «ستوكا» فاختبأوا بين الاعشاب وتمكنوا من النجاة دون اصابة احد منهم . وقرر احدهم ، وهو جندي مظلات اسمه «هوايت» ان يتجه ناحية الجنوب صوب «مارادا» ويحاول الاستيلاء على سيارة . وقد تقرحت قدماه من المشي .

اما التسعة الباقون ، فواصلوا السير طوال الليل وخلال اليوم التالي وهم يسيرون لمدة ٤٥ دقيقة ثم يستريحون لمدة ١٥ دقيقة . ونفد مخزونهم من الماء حتى اصبح لا يوجد الا نصف لتر لكل فرد . ثم شاهدوا نيران مضرب خيام للاعراب ، فاتجهوا اليهم واعطاهم الاعراب بعض البلح وقليلا من الماء وقالوا لهم انه يوجد جدول ماء قريب وعرضوا ان يدلوهم على الطريق ، وملأوا صفائحهم غير انها اصبحت ثقيلة عليهم في الحمل ، فاضطروا الى شرب بعض الماء لتخفيف الوزن . وفي اليوم التالي عند المساء ، قاموا بغلي بعض الماء وعملوا مشروبا من الشيكولاتة من تموينهم ، وقد أعطاهم ذلك شيئا من القوة . وخلال تلك الليلة ، قطعوا مسافة ٤٠ ميلا . ثم هبت عاصفة رملية ، فاضطروا الى الالتجاء لحفرة في الرمال . وكان الجو شديد البرودة وعانوا الكثير في تلك الليلة . ورغم انهم عاودوا السير في الصباح التالي الا ان خطواتهم كانت بطيئة وفي الم .. وتقرحت اقدامهم ، ثم عثروا على الطريق الايطالي الممتد بين أجدابية وجالو فساروا فيه متجهين ناحية الجنوب . وفي صباح اليوم التالي سكنت الريح وارتفعت حرارة الشمس . فبعد ان كادوا يتجمدون من البرد لمدة يومين ، تعرضوا للحرارة المحرقة . وفي حوالي الساعة الحادية عشرة ، ظن «ستترد» انه يرى مجموعة من اشجار النخيل عند الافق . فاعتقد انها سراب . ولكن الاشجار اصبحت محددة كلما زاد اقترابهم منها ، فنبههم اليها وأصبح في استطاعة الجميع ان يروها . وكانت واحة أوجيلة واستعانوا بكل ما بقي عندهم من طاقة وواصلوا السير مسافة الخمسة أميال التي تفصلهم عن الواحة ، وهم يسيرون لمسافات قصيرة ثم يلقون انفسهم على الرمال للراحة . وعند الغروب وصلوا اليها ووجدوا ماء فشربوا واقتلعوا بعض الخضروات من حديقة احد الاكواخ لعمل طبخة . وفي تلك الليلة وهي ليلة الثامن من يناير ناموا في احد الاكواخ ، وقضوا خير ليلة منذ ٣٠ ديسمبر .

وفي الصباح قابلوا جنديا بوليسا من العرب قادهم الى الثكنات وهناك التقوا بثلاثة من أفراد دوريتهم . وفي الساعة الواحدة وصل الرائد «ستيل» لينقلهم في سيارته الى واحة جالو وانتهت بذلك مغامرتهم .

وفي يناير ١٩٤١ قام روميل بشن هجومه المضاد الذي حقق نجاحا كبيرا حتى أصبحت «جالو» غير صالحة للعمليات حيث اصبحت منعزلة . ولشدة تقززهم امرت «مجموعة الصحراء» بالعودة ثانية الى «سيوة» الواقعة بين شمال شرق بحر الرمال الاعظم ومنخفض القطارة ، وأخذ سترلنج وحدته عائدا الى «كبريت» على ضفاف القنال .

الفصل الخامس

الكوماندوز يغيرون على بنغازي

عند الوصول الى القاهرة ، طلب سترلنج ان يحدد موعدا لمقابلة «اوكنلك» ، وذلك لان وحدته ، رغم الاعمال المجيدة التي قامت بها ، كانت قوتها قد تقلصت . فان فريزر ورجاله ما زالوا في سيرهم عبر الصحراء، والحاجة تدعو الى مزيد من الرجال والضباط لو قدر للعمليات ان تستمر. ولم يكن سترلنج قد حلق ذقنه منذ آن وصل الى المدينة وكان ما يزال يحمل لحية كثة اثارت الفزع لدى بعض اعضاء القيادة العامة ، غير انها أعجبت اوكنلك .. ففي ذلك الوقت بالتحديد كان الجيش الثامن يتقدم ثانية ومن المتوقع ان تسقط بنغازي مرة اخرى . ولو حدث ذلك ، فان على روميل ان يستخدم ميناء بلدة بيروات الصغير لتموين قواته وهو ميناء يقع بعد «تمت» وعلى بعد ٣٥٠ ميلا منها من ناحية الغرب . وسأله «أوكنلك» ماذا يقترح ان يقوم به ، فعرض سترلنج ان يقوم بالهجوم على الميناء ويغرق البواخر الموجودة فيه ويدمر معدات الميناء . واتفق على ان الغارة لا تنفذ قبل منتصف ألشهر عندما يكون القمر في المحاق .

وقد عرف أوكنلك الجرأة المتناهية في الخطة واعطى تصريحه بها . وسمح بتجنيد ستة ضباط جدد وثلاثين رجلا ورقي سترلنج الى رتبة « الزائد » .

وقام سترلنج بوضع خططه في مسكن اخيه بالقاهرة ، ورغم الشهرة التي نالتها وحدته في مسرح عمليات الشرق الاوسط، وربما بسببها واجهته المشاكل السابقة من أركان الحرب في القيادة المسؤولين عن التموين والامداد والافراد الذين وضعوا العراقيل وأيدوا ، للاسباب ، في ان نقل هذا الضابط أو ذاك لا يمكن ان يتم ، او ان القنابل والمتفجرات المطلوبة قد ارسلت لجهة اخرى . وقد ازداد غضب رجال أركان الحرب المسؤولين عن الافراد، عندما اخترع سترلنج شعارا جديدا لقبعات رجاله العسكرية وقالوا انه طبقا للتعليمات الرسمية فان وحدة «خدمة الطيران الخاصة» ما هي الا تشكيل مؤقت وان على رجالها ان يرتدوا الشعار والعلامات الخاصة بالآليات التي يتبعونها . غير ان سترلنج في مثل هذه الخلافات كان يخرج منتصرا. وقد زاد عدد وحدته حتى وصل الى ٥٠ فردا وكانت هذه الزيادة عندما وجد بعض رجال المظلات من الفرنسيين الاحرار القادمين من سوريا جالسين بلا عمل في الاسكندرية .

وكان العثور على ضباط جدد من الصعوبة بمكان . غير ان سترلنج اضاف الى قوته ضابطا مرموقا وهو «فيتروري ماكلين» الذي كان يعمل في وزارة الخارجية عندما قامت الحرب وعندما رفضوا أطلاق سراحه للانضمام الى الجيش ، رشح نفسه في الانتخابات ، وأصبح عضوا برلمانيا . وانضم الى آلاي الكاميرون هايلاندرز . وطار الى الصحراء للانضمام ألى الكتيبة الثانية من الآلاي الموجودة هناك . وحدث ان كان داخلا الى القيادة العامة في القاهرة عندما كان سترلنج خارجا منها ، فعرف كل منهما الآخر ، لان أخا سترلنج «بيتر» كان زميلا له وصديقا قديما . ووقفا يتحدثان ثم عرض عليه سترلنج ان ينضم الى وحدته ، فقبل «ماكلين» على الفور .

وبعد عدة ايام ، انتقل «ماكلين» الى المعسكر في «كبريت» وقادوه الى خيمة لتكون مقرا له . وقال له الجندي الذي قاده اليها وهو من رجال الحرس ، واسمه «دنكان» ان صاحبها المسكين لن يعود في حاجة اليها لانه مات في الصحراء . وبينما كان «ماكلين» يرتب أمتعته في الخيمة ، أزاحت يد باب الخيمة وأطل من الباب وجه عليه لحية ضخمة وقال «هذه خيمتي» وكان القائل هو «بيل فريزر» الذي اعتقد الجميع انه مات في الصحراء .

وفي ١٠ يناير ، كان سترلنج قد فرغ من اعداد خطته ، وفي صباح اليوم التالي طار مع وحدته الى واحة جالو ، حيث انضم اليهم النقيب «دنكان» وبعض الرجال من وحدة الزوارق الخاصة مجهزين بالالغام

المغناطيسية والمفرقعات .. وحملتهم سيارات «مجموعة الصحراء» تحت قيادة النقيب «هنتر» ومعهم «مايكل سادلر» كدليل . وبدأوا رحلتهم في ١٧ يناير . وأصبحت الارض حول «بيروات» مألوفة لهم ولم يتوقعوا ان تصادفهم مشاكل في طريقهم . وساروا ناحية الجنوب لكي يتجنبوا طائرات استطلاع العدو . وانفجرت معهم بضع اطارات على الارض الوعرة ، وقبل حلول الظلام يوم ٢٢-١-١٩٤١ وصل الطابور الى وادي «تمت» الذي يبعد ٥٠ ميلا عن هدفهم . وقرر «هنتر» ان هذا العائق وهو الوادي يجب ان يجتازوه في صباح اليوم التالي . وعسكروا على حافة الوادي . وبعد ان تناولوا العشاء ، اتصل رجال اللاسلكي بالقاعدة في واحة سيوة بناء على طلب سترلنج لانه كان يأمل في ان تصله معلومات جديدة بواسطة صور طائرات الاستطلاع التي اخذت حديثا . وجاء الرد في اليوم التالي ، ولم يكن الرد مشجعا .

وقرر «هنتر» ان عليهم ان يهبطوا الى الوادي بسرعة . ولم يكن لديهم الوقت الكافي للاستطلاع ، وهبطت السيارات في حذر وما كادت تصل الى بطن الوادي وينشرون فوقها شباك التمويه حتى ظهرت طائرة وحلقت فوقهم ثم اتجهت الى «تمت» .. وبذلك ، فقد اكتشف العدو وجودهم ، فأمر «هنتر» على الفور السيارات بالتفرق والاختفاء وأنطلقت السيارات تبحث عن ملجأ يقيها من الجو . وبعد مرور نصف ساعة ، وصلت القاذفات وعددها ستة ، ولمدة ساعة ، ظلت الطائرات تحلق فوق الوادي وهي تقذف بقنابلها وتطلق نيران مدافعها الرشاشة . وبعد ذلك ، حدثت فترة سكون حتى وصلت طائرات جديدة وبدأت القذف مرة اخرى . وبلغت الساعة السادسة حيث تمكن «هنتر» من اعطاء أوامره للسيارات بالتجمع مرة ثانية . ورغم انهم لم يصابوا بأضرار ، فقد بحثوا عن سيارة اللاسلكي ورجالها ، فلم يجدوهم . فقد اختفوا مع سيارتهم . فهل اتجهت السيارة جنوبا أو استولى عليها العدو ام دمرت ؟ فقد كان من الصعب معرفة ذلك . . غير انهم لم تقع أعينهم عليها مرة اخرى .

وكانت هذه ضربة قاصمة لسترلنج ، حيث حرم من الاتصال بالراديو ولم يعد في استطاعته تلقي المعلومات الحديثة من القاعدة . ولكن لم يكن هناك مجال للتراجع ، وتسلقت السيارات جانب الوادي حتى خرجت منه واتجهت غربا الى «بيروات» وعلى بعد ٦٥ ميلا منها توقفوا ، وقام المغيرون بتجهيز معداتهم وبدأ النقيب «دنكان» من قسم الزوارق الخاصة بجمع

قطع الزورق .

وقامت سيارة واحدة بالرحلة الاخيرة الى بيروات . وعلى هذه السيارة حملوا الزورق وركب فيها كذلك هنتر وسادلر ودنكان وسترلنج و١٦ من رجاله . وفي الساعة الثامنة وخمس واربعين دقيقة من مساء ذلك اليوم قطعوا الصحراء الوعرة الى الطريق المرصوف . وبقي عليهم ان يقطعوا خمسين ميلا الى هدفهم ولكن قبل ان يصلوا الطريق فقد سقطت عجلات السيارة الامامية في حفرة واصطدم الزورق بشدة بجانب السيارة وسمع صوت تكسر الاخشاب ، فتوقفوا ليعرفوا مدى الخسارة فوجدوا ان الزورق قد انشطر من منتصفه .

وهكذا ، فقدوا الكثير .. فهم اولا ، فقدوا ميزة المفاجأة عندما اكتشفتهم الطائرات ، ثم فقدوا عربة اللاسلكي ثم تحطم الزورق .. وهكذا كانت الاحوال ضدهم ولم يكن احد يلوم سترلنج لو استولى اليأس عليه . غير ان ذلك لم يوهن من عزمه وكل ما قاله انه يجب ان تعدل الخطة واذا لم يمكن للوحدة ان تصل الى البواخر الراسية في الميناء ، بسبب تحطم الزورق ففي امكانهم تدمير منشآت الميناء .

وقبل الرجال هذا القرار بسرور وهم يذكرون انه بعد تحطيم الزورق، أصبح هناك مكان اوسع لهم .. وفي روح مرحة ، وصلت القوة الى الطريق المرصوف وساروا بسرعة فوق الطريق ، ثم انحرفت السيارة عن الطريق. وكان الوقت بعد منتصف الليل بقليل . ورغم انه لم يكن من الممكن رؤية شيء في الظلام عدا الارض الممتدة . ولكن «ميكل سادلر» كان واثقا ان «بيروات» لا تبعد عنهم آلا أميالا قليلة ، وعليهم ان يصلوا الى هناك في ظرف ساعتين ويتموا مهمتهم ثم يعودوا لان هنتر أصر على ان السيارة يجب ان تتحرك الى الصحراء في تمام الساعة الثانية . وأول من غادر السيارة النقيب دنكان ومساعده . اما سترلنج فقسم قوته قسمين الاول للذهاب معه والثاني بقيادة المساعد ريلي . وتقضي الخطة بالاقتراب من الميناء من اتجاهين متضادين . ومنع استخدام النيران الا في حالة الضرورة القصوى وأصر سترلنج على ان خير سلاح لهم هو الخنجر .

وتحركوا عبر الارض وظهرت الارض المزروعة ، ورغم الظلام الحالك، فقد امكنهم ان يميزوا شكل المنازل على بعد ، وقاموا بالدوران دورة كبيرة ليتجنبوها وهم يأملون في الوصول الى الميناء عن طريق الشاطىء . وسيطر جو من التوجس والحذر حيث توقعوا في كل لحظة ان يصطدموا بحارس

من الحراس او سور من الاسلاك الشائكة او إي عائق . غير أن المكان بدا لهم خاليا . وكذلك لم يجدوا بواخر راسية في الميناء وكل السفن التي وجدها سترلنج بعد جولة استطلاع سريعة هي بعض زوارق الصيد . فأوكل الى بعض رجاله الوقوف امام أحد المباني الضخمة الواقعة على رصيف الميناء ، ودخل الباقون . وهناك ، وجدوا بعض الطلمبات والمضخات فقاموا بوضع قنابلهم بينها . وبعد ذلك ، دخلوا الى مبنى آخر وجدوه ممتلئا لحافتــه بالمؤن والامدادات فوضعوا قنابلهم بينها .

وبعد ان فرغوا من ذلك ، قاد سترلنج جماعته حول الميناء فالتقى فجأة مع المساعد «ريلي» ورجاله . وذكر «ريلي» انه لغم مستودعا للطعام وورشة للاصلاحات غير انه شاهد نقطة حراسة ، ويحاول ان ينسحب من الميناء برجاله .

وتحركت القوات للخروج من منطقة الميناء . وشاهد سترلنج بعض المعالم الضخمة غير المميزة في الظلام فقدم منها لكي يستطلع ، فوجد نفسه في وسط فضاء ضخم لسيارات النقل . ووجد بين صفوف السيارات كثيرا من العربات الحاملة للوقود ، حمولة الواحدة منها ٢٠ طنا ، ومن الرائحة النفاذة المحيطة ، تبين انها قد ملئت حديثا ، فاستدعى رجاله وأخذ يضع مفجراته في السيارات . وسمع اصوات متكلمين ، تبين فيما بعــد أنهم «ريلي» ورجاله ، الذين شاهدوا هم كذلك موقف السيارات وأخذوا يضعون متفجراتهم بها ولكن من الناحية الاخرى . ولكي يمنع سترلنـــج حدوث مصادمة للقوتين بطريق الخطأ ، قرر أن ينسحبوا جميعا معا الى مكان اللقاء سويـا .

ووجدوا «هنتر» ورجاله في انتظارهم كالمعتاد ، فيما عدا النقيب دنكان والرجل التابع له اللذين لم يعودا بعد من مهمتهما وهي تدمير محطة الارسال اللاسلكي . وقرر هنتر انه يجب ان يرحل فورا على أن يعود لالتقاطهم في اليوم التالي . وصعد سترلنج ورجاله الى السيارات، ومضوا في طريقهم .

وفي تمام الساعة الثانية عشرة ، بدأت المتفجرات التي وضعوها في الانفجار .. وكان العدو يعاني من النقص في السيارات الحاملة للوقود ، وبعد الغارة ، زادت حاجتهم اليها اكثر واكثر .

وفي صباح اليوم التالي ، خرجت الطائرات لتتعقب المغيرين ، ولكنهم ظلوا مختبئين بين الاعشاب والشجيرات وقد مدوا شباك التمويه فـــوق سياراتهم . وعند العصر أغبرت السماء وزادت سرعة الرياح وأخذت الرمال

تتطاير . ورغم المتاعب التي تحملوها من جراء العاصفة فقد كانوا مسرورين لان الطائرات لا تستطيع ان تقلع في مثل هذا الوقت . وفي الساعة الحادية عشرة مساء ، عندما سكنت الريح ، عاد سترلنج مع هنتر وبعض الرجال لالتقاط النقيب «دنكان» ومساعده . وتوقعوا المتاعب ولكنهم شعروا بالراحة عندما شاهدوا كرما من الاخشاب في الطريق ، وهي العلامة المتفق عليها مع دنكان . فقفز سترلنج من السيارة ونادى على دنكان فأجابه على الفور من مخبئه وانضم اليهم . وذكر لهم انه دمر محطة اللاسلكي حيث وضع عبوة من المتفجرات قدرها ٣٠ رطلا من المادة الناسفة (ت.ن.ت) . وأثناء ابتعادهم عن المحطة ، شاهدوا وسمعوا المتفجرات التي وضعها سترلنج ورجاله حول الميناء وقال لهم انها بدت كأن مجموعة كاملة من ناقلات البترول قد تفجرت .

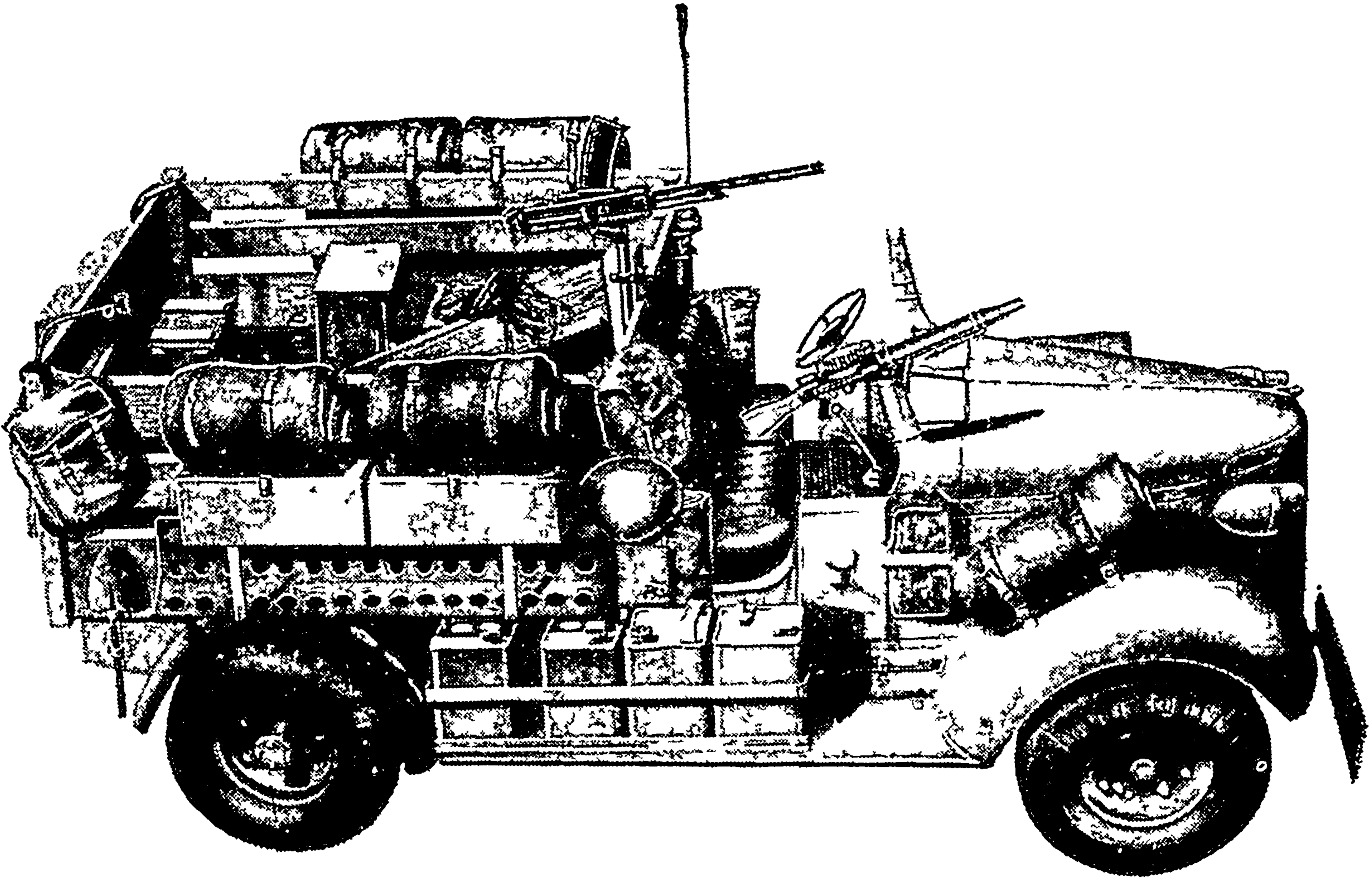
وشعر سترلنج بالنشوة لنجاح مهمته فأخذ يبحث عن اهداف اخرى ليدمرها قبل العودة .. وأخيراً وجد ناقلتين للبترول فوضع فيهما المتفجرات ، غير انهم بعد ان اتموا عملهم واتجهوا الى الصحراء وقعوا في كمين نصبه لهم العدو . ولم تكتب لهم النجاة الا بفضل ثبات السائق وسيطرته على أعصابه ، فقد مضى بالسيارة الى الامام وهو يزيد من سرعتها شاقا طريقه وسط ستارة كثيفة من نيران المدافع الرشاشة ، وبقيت القوة طوال اليوم التالي مختبئة بين الاعشاب وعندما حل الظلام ، انطلقوا متجهين الى واحة «جالو» .

غير ان شيئا واحدا ، حير عقل سترلنج وهو لماذا كان الميناء خاليا من البواخر . ولكن الذي لم يكن يعرفه ، هو انه في ٢١ يناير ، قام روميل بشن هجومه الذي اخذ الجيش البريطاني خلاله على غرة ، وبعد اسبوع من بدء الهجوم ، كان في بنغازي وقد استولى على الجزء الاكبر من برقة وتراجع الجيش الثامن الى مراكزه القديمة في الغزالة .

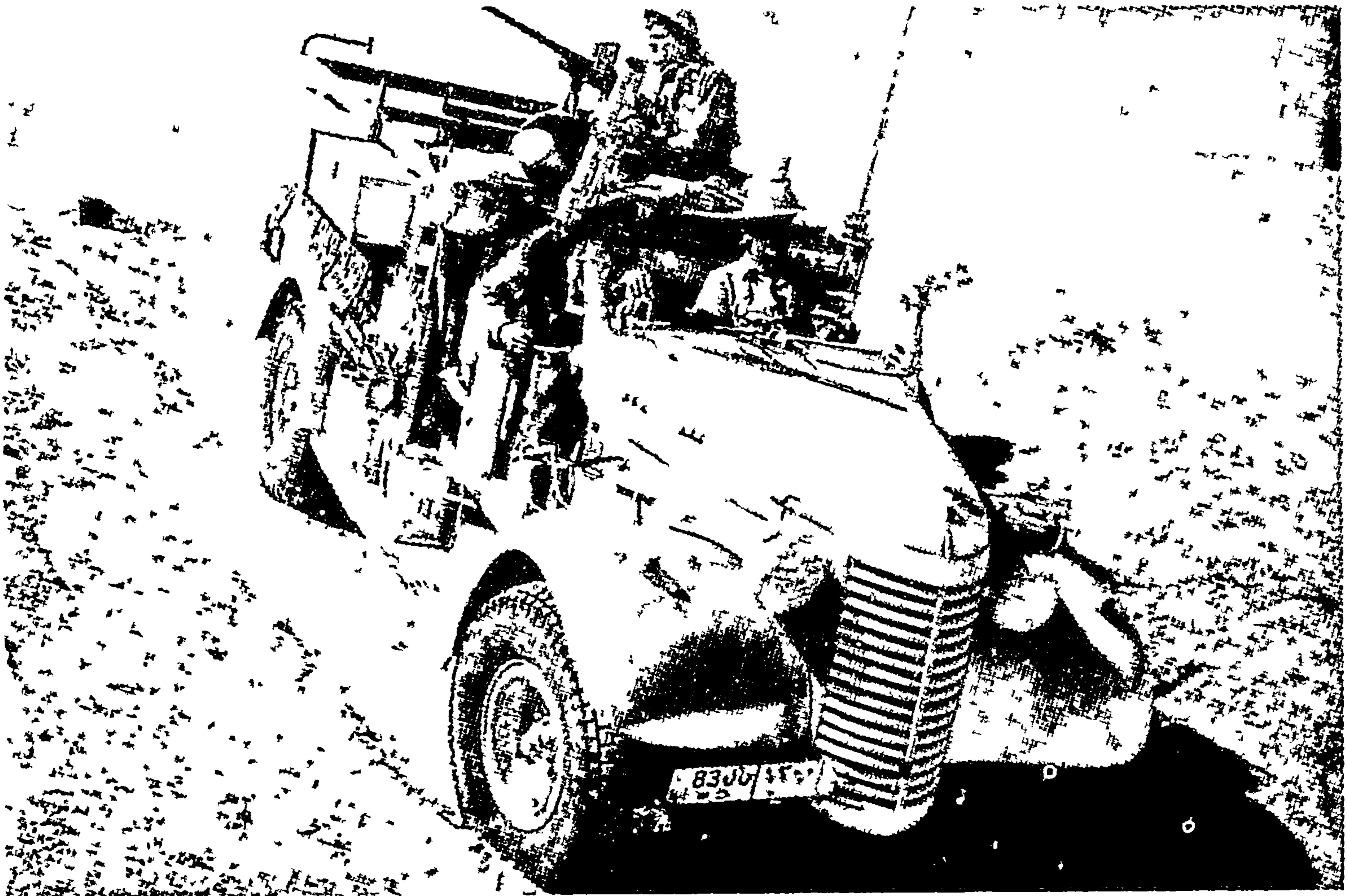
وعندما علم سترلنج بهذه الانباء من الاذاعة البريطانية ، قرر ان جالو لم تعد صالحة للبقاء فيها ، واقترب منها على حذر اذ قد يكون الالمان قد ارسلوا طابوراً ميكانيكيا اليها . ولكن النقيب «تيمسون» مع الدورية (ح) من«مجموعة الصحراء» كانوا لا يزالون فيها، يدمرون المستودعات وينصبون الشراك المدمرة . ولحسن الحظ ، لم تطلق اية من الجماعتين النار على الاخرى . وقضوا الليل في جالو ، ثم تركوها جميعهم في صباح اليوم التالي متجهين الى سيوة ومن هناك اخذ سترلنج رجاله الى معسكرهم



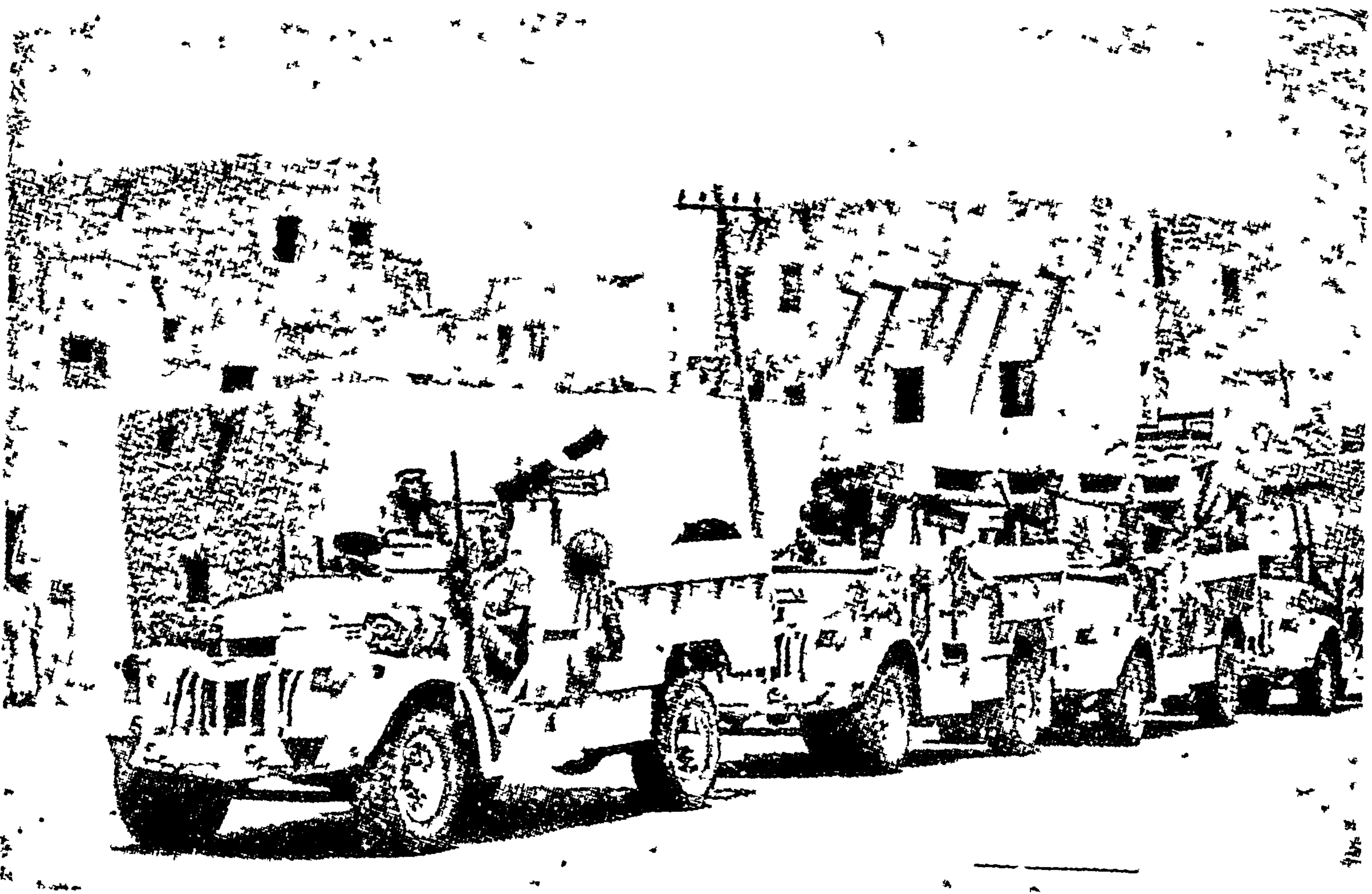
الاسرى الايطاليون بالآلاف في أيدي البريطانيين



السيارات الشفروليه التي استخدمتها القوة في غاراتها على المطارات الايطالية



المدافع الرشاشة مشرعة والرجال على أهبة الاستعداد



قافلة ((قوة الصحراء الضاربة)) تتحرك من احدى الواحات التي اتخذتها مقرا لقيادتها في صحراء مصر الغربية .



مراقبة تحركات العدو من خلف الاعشاب الشوكية



المشاة الايطاليون يتقدمون في الصحراء الغربية لمصر



استخدام الزحافات للتغلب على صعوبة السير في الرمال

الاساسي في «كبريت» وخطط كثيرة تدور في رأسه .
وكانت أهم هذه الخطط ، غارة تشن على بنغازي بعد ان احتلها الالمان واصبحت تعمل بكامل طاقتها كقاعدة وميناء تموين لقوات روميل . وكان الراي في القيادة العامة في القاهرة ان «اوكنلك» ليس في استطاعته ان يشن هجوما قبل بضعة شهور بسبب البطء في تكوين بناء الاحتياطـــي وسوف يبقى حاليا في مواقعه في الغزالة .
وفي مثل هذا الموقف اعتقد سترلنج ان تدبير غارة يقوم بها بين ٨ — ١٢ مارس هي شيء يستحق القيام به حتى لو اقتضى وضع الخطة لهـــا بضعة اسابيع . وبدأ يضع تفاصيل الغارة ويعين لكل جماعة فيها اهدافها في بنغازي . وكان من الخطة ان يقوم سترلنج نفسه وبادي مين مع مجموعة من الرجال بالهجوم على مطاري «بنينا» و«بركة» وعلى ملازم اسمه دودز انضم حديثا اليهم ، ان يهاجم مطار «سلونتا» وعلى «بيل فريزر» و«بارك» ان يهاجموا اهدافا اخرى . ونبتت عند سترلنج فكرة جديـــدة وهي ان يصحب معه بعض رجال «وحدة الزوارق الخاصة» وأن يدخل بهم ميناء بنغازي . وقد اعتقد العميد ماريوت ان هذه فكرة غير معقولـــة بالمرة لان بنغازي لن تكون مثل «بيروات» ، فسوف يواجهون بالاسلاك الشائكة وعوائق الطرق ونقاط الدفاع الموضوعة في عمق . وعلى كل فقد وافق على ان يتصل سترلنج بضابط مخابرات اسمه جوردون الستن الذي عنده معرفة تفصيلية عن مدينة بنغازي ، وقد وافق «الستن» على الاشتراك في العملية ، كما وافق ضابطان من «وحدة الزوارق الخاصة» وهما «دافيد سترلنـــد» و«كين ألوت» وأخيرا ضم سترلنج اليه رجل اعمال بلجيكي وهو النقيب «بوب ملوت» الذي يعمل لحساب المخابرات البريطانية ويتكلم العربيـــة بطلاقة . وأضاف لهؤلاء جنديين من أتباع السنوسي .
وبالطبع ، فانه كان من اللازم وجود تعاون وثيق مع رجل «مجموعة الصحراء بعيدة المدى» . وقد وافق برندر جاست على ان تقوم الدورية الروديسية بقيادة جون أوليفي بنقل القوة المهاجمة . وفي ذلك الوقت ، كانت الدورية متخذة معسكرها في سيوة التي اصبحت كخلية النحل من النشاط . فباستمرار ترسل «مجموعة الصحراء» دورياتها لمراقبة الطرق. وتسقط الجواسيس بجوار الطريق الساحلي وتستكشف الصحراء المحيطة بجالو . ومن مطار الواحة كانت الطائرات من طراز «بومباي» و«ليساندر» و«لينتن» و«هدسن» تطير في سيل مستمر رائحة غادية ، تستكشف . ولم

يسبق لهذه الواحة التاريخية الشهيرة ان عرفت مثل هذا الضجيج والحركة .

وتحرك طابور الغارة في الساعة السادسة من يوم ١٥ مارس ..وركب سترلنج وجماعته في سيارة فورد غير من معالمها حتى تشبه سيارة اركان حرب المانية .. وركب السِتن وسترلند في سيارة أركان حرب المانية حقيقية سبق الاستيلاء عليها منذ بضعة أشهر والطريق كان يعرفه رجال «مجموعة الصحراء» وهم مغمضو الاعين .. وخرجوا من منخفض سيوة مارين خلال حقل الالغام الموجود عند قاعدة المنخفض ، ثم عبروا لافتة مكتوب عليها «إنت الان تدخل منطقة منتشرة فيها الملاريا» ثم مروا بمهبط لسلاح الطيران البريطاني من الحرب العالمية الاولى ، ثم فوق طريق السلوم لمسافة ٨٠ ميلا. ثم في الصحراء التي تمتد الى الجناح الجنوبي لمرتفعات الجبل قبل ان يواصلوا سيرهم على «طريق العبد» ثم اتجهوا الى «وادي قطارة» ثم الى المرتفعات التي تتحكم في سهل بنغازي ، وأتخذوا لهم قاعدة أمامية في بطن التلال التي تبعد ١٦ ميلا عن الشاطىء . وأمر سترلنج «ميلوت» ان يكلف الجنديين من أتباع السنوسي بأن يذهبا للاستطلاع . وفي نفس الوقت انطلق «بادي مين» ورجاله الى مطار «بركة» الذي يقع جنوبي بنغازي بعدة أميال . واستراحت باقي القوة تحت الاشجار واستمتعت بالماء البارد الموجود في الآبار المجاورة وكان المنظر هادئا تماما .

ولكن في صباح اليوم التالي ، تغيرت الاحوال ودب النشاط حيث عاد الجنديان من أتباع السنوسي وقررا أنه لا توجد حواجز طرق على الطريق الرئيسي المؤدي الى بنغازي . فقام سترلنج واخذ «السِتن» و«ألوت» مع رجلين من رجاله واثنين من رجال وحدة «خدمة الزوارق الخاصة» وانطلق بسيارته المموهة مصحوبا حتى برجال «مجموعة الصحراء» . وسار بالسيارة مسرعا ؛ ورأى في طريقه جماعات من الاعراب يعودون الى منازلهم بعد عمل اليوم وفيما عداهم كان الطريق خاليا . ولا يوجد جنود عليه وبذلك كان تقدير الجنديين من أتباع السنوسي صحيحا . وسرعان ما وصلت السيارة الى الحي العربي في أطراف المدينة وأبطأت السيارة من سيرها وظلت مستمرة في طريقها حتى وصلت الحي الغربي من المدينة والى مداخل الميناء . فاختار سترلنج بقعة تبعد نصف ميل عن البحر وتقع خارج نطاق الاسلاك الشائكة وأوقف السيارة بين بعض المباني المدمرة من الجو . وقام وبصحبته «السِتن» و«الوت» ورجلين بشق طريقه في الشوارع الخلفية

متجها الى البحر .. وهبت ريح باردة وزادت برودة الجو ، وخيم الظلام التام على المدينة بسبب قيود الاضاءة ولم تكن هناك حركة حولهم حتى وصلوا الى الماء بدون حادث .

وعندما راى «ألوت» هياج موج البحر ، ابدى شكه في امكان جعل الزورق يستمر عائما . فمن الواضح انه ليس في الامكان الوصول الى البواخر الراسية على بعد مئات من الياردات . واقترح تجميع الزورق استعدادا لهبوط سرعة الريح، فتركهم سترلنج ليلقي نظرة سريعة على الميناء. وعاد ولم يقابل احدا سوى سكير واحد ، وتمكن من العثور على مدخل جانبي للميناء ، لم يكن محروسا بعناية . ووجد ان ألوت يعاني المتاعب في تركيب الزورق . فان بعض أجزائه لم تتفق تماما وعليه كان يتعذر استخدامه . وزادت سرعة الريح والامواج واخذت تصطدم بالحاجز في الميناء وهي تترك زبدا ابيض عاليا بعد كل ارتطام . ولم يكن لهم الخيار فأعلنوا عن عجزهم وعادت الجماعة ثانية الى السيارة . وهكذا فشلت الغارة الاولى على بنغازي . وهناك عند القاعدة التي اقاموها في بطن التلال كانت الاخبار كذلك مثبطة . فقد وجد دودز الدفاعات الموجودة حول مطار «سلونتا» كثيفة لدرجة استحال معها اختراقها . ومیل الستن طريقه الى مطار بركة ولم يقترب ابدا من المكان . اما بيل فريزر فقد اقتحم مطار «بارك» فلم يجد سوى طائرة واحدة وبعض عربات الاصلاح فنسفها جميعا. وكانت الاخبار السارة الوحيدة هي تلك التي حملها «بادي مين» الذي عاد مع رجليه وذكر انه قد دمر ١٥ طائرة بجوار «بركة» غير انه لاقى المتاعب اثناء عودته لانه ضل الطريق بسبب عدم دقة خريطته .. وفيما بعد كتب يقول :

«بعد الغارة التي قمنا بها ظللنا يوما وليلة لا نستطيع ان نتعرف على مكان اللقاء .

وظللنا نسير من الساعة الواحدة الى الساعة السابعة من مساء اليوم التالي ولم نستطع ان نعثر على المكان . وقطعنا قرابة ٥٠ ميلا في رحلتنا الى المطار وعودتنا منه .

ولم يكن شيئا مبهجا السير في دوائر خلال الظلام . وقررت ان اقطع المسافة الى طبرق التي تبعد ٢٥٠ ميلا . ومن ثم توجهت الى اقرب مضرب للاعراب السنوسيين لاطلب بعض الماء وبطانية لو أمكن . ولكن السنوسيين كانوا على حذر اولا حتى اذا تأكدوا اننا انجليز تغير كل شيء وأدخلونا في

احدى الخيام وأحضروا معداتنا وفرشوا لنا البطانيات للنوم» .

وظل بادي مين ممددا على الارض وهو مفتوح العينين يفكر في كيفية العثور على مكان اللقاء مع سترلنج ومجموعة الصحراء ، ثم حدث شيء غريب جدا وقال يتابع روايته :

والآن استمعوا لما حدث . ولا تنكروا ابدا فعل الحظ . فان الرجال الذين كانوا ينتظروننا في المكان المعين للقاء . حصلوا على دجاجة عن طريق مقايضتها بالسكر من بعض الاعراب . وارادوا ان يطبخوها فطلبوا من اعرابي يتكلم الانجليزية ان يطبخها لهم . فأخذها الاعرابي وذهب . وكان في المنطقة ما لا يقل عن ٣٠ مضربا للاعراب ممتدة على مساحة لا تقل عن ثلاثة أميال مربعة . ولم يقع اختياره على احد ليطهي الدجاجة الا اصحاب المضرب الذي كنا فيه . وهكذا عدنا الى القاعدة مع الباقين .

وفي اليوم التالي غادر الطابور القاعدة الى «سيوة» التي وصلوها بدون عائق .

ورغم ان تدمير الطائرات هو عمل رائع في حد ذاته الا ان العملية لم تحقق الا القليل جدا بالنسبة لما كان يأمل فيه سترلنج . وان ذكرى رؤية البواخر الراسية على بعد مابة ياردة منه دون ان يستطيع ان ينال منها كانت لا تزال تؤرقه . فلو ان الجو العاصف لم ينقلب ضده ، ولو ان الزورق لم يتلف ! والشيء غير العادي الذي حققته الغارة هو ان الوصول الى بنغازي والخروج منها ثانية رغم انها كانت خارج حدود المستطاع بالنسبة للرؤساء في القاهرة قد ثبت أنها سهلة للغاية . وزاد ذلك من عزمه على محاولة العودة مرة ثانية .

اما عن «مجموعة الصحراء بعيدة المدى» التي رأيناها تعمل كمجرد ناقلة لرجال وحدة «خدمة الطيران الخاصة» فان ذلك لا يعد وصفا دقيقا لها لو اعتبرنا ان ذلك العمل هو كل الدور الذي كانت تقوم به . فلو ان احدى الدوريات كانت تنقل سترلنج ورجاله الى مهامهم فقد كان الى جانبها اكثر من أثنتي عشرة دورية تعمل فى أغراض مختلفة . بعضها اعمال روتينية والآخر على جانب كبير من الاهمية ويحتاج الى رحلات طويلة شاقة . ففي ٣٠ مارس على سبيل المثال قامت احدى الدوريات المشكلة من قوات الحرس تحت قيادة النقيب الموقر روبن جوردون بمغادرة سيوة والتوجه الى جنوب واحة جالو التي كانت تحتلها في ذلك الوقت القوات الالمانية .

وقطعت الدورية ٢٢١ ميلا عبر الصحراء بين طلوع الشمس وغروبها .

وهو عمل ملحوظ بأي مقياس . وفي اليوم التالي اتصلوا بالدورية النيوزيلندية التي كانت تراقب الطريق . وكان الغرض من ذلك هو تسجيل كل التفاصيل الخاصة بالسيارات المارة على الطريق وارسال اشارات لاسلكية بها الى مقر القيادة . ومن هذه المعلومات يستطيع رجال المخابرات في قيادة الجيش الثامن ان يحددوا تفاصيل النوايا لدى العدو .

الفصل السادس

العودة الى بنغازي

في صباح احد الايام من منتصف شهر مايو غادرت القوة معسكر «كبريت» في سيارة قيادة سترلنج التي ركب عليها اربعة مدافع رشاشة تم وضعها على قواعد خاصة اثنان في المقدمة واثنان في المؤخرة . وكانت اول زيارة قاموا بها الى ادارة المخابرات البحرية بالاسكندرية حيث حصلوا على أحدث الخرائط والصور الجوية ألفوتوغرافيه، وأخذ تقارير المخابرات ووضع امامهم نموذجا من الخشب لميناء بنغازي وجلسوا صامتين حول النموذج يحاول كل منهم ان يحفظ في ذاكرته كل التفاصيل الجغرافية ـ ملاحظين وجود لسان من الرمال أسفل المراسي في الميناء ـ وبذلك فانهم اذا أمكنهم ان يمروا من الحراس فان هذه تعتبر نقطة مثالية لكي يضعوا فيها الزوارق في الماء . ولكن ماذا عن كيفية دخول المدينة ؟ هل سيكون ذلك سهلا كما كان في المرة الاولى ـ وكان رأي المخابرات انهم اذا دخلوا البلدة عن طريق «بنينا» وهو من جهة الشرق ، فلن تكون هناك صعوبة ، فنقطة الحراسة على هذا الطريق قد أزيلت .

وبعد ان تناولوا الغداء ركبوا سيارتهم الى «مرسي مطروح» ومروا في طريقهم بلافتة وضعها نادي السيارات الملكي المصري منذ سنوات كتب عليها: (بنغازي ١٠٠٠ كيلومتر) ..

وفي اليوم التالي غادروا مرسي مطروح متجهين الى واحة سيوة في رحلة استغرقت يومين . وكان ماكلين مبتهجا لرؤية سيوة التي سمع عنها القصص والاساطير منذ طفولته . ولم تخيب سيوة ظنه . وفيما بعد اعاد ذكر سروزه بمرأى البحيرات ذات المياه العذبة وهي تنجر بالمياه من اعماق بعيدة تحت ظلال النخيل . وقد قام بما قام به قبله ابوه ، اذ خلع ملابسه واستحم في احدى تلك البحيرات وكان ابوه قد زار الواحة قبل ذلك بربع قرن . وقال فيما بعد ان الاستحمام هناك يشبه الاستحمام بماء الصودا .

وفي احد المباني هناك ، كان ينتظرهم روبين جوردن احد رجال مجموعة الصحراء بعيدة المدى ، في مقر القيادة . وبدات المناقشات بخصوص رحلتهم الى بنغازي على الفور .

وفي عصر اليوم التالي وهو يوم ١٨ ، غادرت المجموعة سيوة قاصدة بنغازي وفي اليوم الثاني واصلوا رحلتهم من الفجر حتى الغسق . واصبح الجو حارا وخلعوا ملابسهم سوى بنطلوناتهم القصيرة وهم في سرور لمرور النسيم فوق اجسادهم العارية نتيجة لسرعة السيارات . وما ان غربت الشمس حتى انخفضت درجة الحرارة بسرعة وسارعوا بوضع ملابسهم على اجسادهم من البرد . وللاسف ان معظم الرجال العمليين ليسوا بالكتاب المتازين ولذلك فان الشعور والاحساس بهذه الرحلات الصحراوية الطويلة قد ضاع او كتب بطريقة بدائية . ولحسن الحظ كان فيتزوري ماكلين رجل عمل وقلم. وفي كتابه المشهور «على مشارف الشرق» قد ترك لنا صورة رائعة حية عن ليالي الصحراء فكتب يقول :

«لم يستغرق اعداد العشاء وقتا طويلا . وكان العشاء (يخني) حار من اللحم ثم الشاي واحيانا قليلا من الردم . وقد تم الطهو على نار صحراوية عملناها بصب بعض البترول على صفيحة ملئت بالرمل . وقد ظلت مشتعلة بلهب ثابت القوة لمدة طويلة جدا . وبعد ان اكلنا وملأنا «الزمزميات» من عربة الماء استعدادا لليوم التالي . كنا نجلس حول النار المشتعلة وقد التففنا بمعاطفنا الثقيلة . وبعد ان نرسل الاشارات اللاسلكية ونتلقى التعليمات من القيادة ، ندير جهاز اللاسلكي لمتعتنا ، فنسمع موسيقى الجاز او الى غناء «توم هاندلي» او الى نشرة اخبار الساعة الثامنة من لندن . وتبدو لنا القارة الاوربية بعيدة جدا عنا . وكنت اسائل نفسي متى يقدر لي ان اراها ثانية . وكيف سيكون مرآها لو كتب لنا ان نراها .. ثم تخمد النار ونمضي نبحث عن بقعة ناعمة من الرمال لنتمدد عليها داخل حقائب نومنا . ونغرق

في نوم عميق تحت اضواء النجوم والنسيم البارد يداعب وجوهنا .. وقبل الفجر نسمع الطاهي يقرع آنيته ويصيح : «تعالوا خذوا افطاركم» . وهنا نرى الجميع يسارعون بلبس احذيتهم استعدادا لوجبة الافطار وهكذا يبدأ اليوم. وبعد تناول الافطار المكون من عصير اللبن والسجق واحيانا البسطرمة اللذيذة المقطعة التي يوزعها الجيش في معينات معلبة ، نتابع رحلتنا اولا وسط هواء بارد . ولكن بمجرد ان ترتفع الشمس في الافق فان خلع الملابس يبدأ يأخذ مجراه ، والصحراء بعضها ناعم وبعضها صخري ، واحيانا منبسطة واحيانا وعرة وعدا بقع من الاعشاب الشوكية فهي خالية تماما . وكل مظاهر الحياة فيها هي تلك الغزلان الصغيرة التي تبدو لنا من بعد ، واحيانا تمر فوق رؤوسنا طائرة مقاتلة من طائراتنا من طراز «بوفيتر» دون ان تبالي بعلامات العدو التي خطها سترلنج فوق سيارته للتمويه والخداع. وعندما وصلنا الى غرب «الغزالة» حيث تواجه الجيوش البريطانية الجيوش الالمانية على الشريط الساحلي ، فان نظام الرحلة يتغير ، فنسير خلال الليل ونختبىء اثناء النهار . وعادة كنا نجد بعض الصخور او الشجيرات لكي تساعدنا في نشر شباك التمويه . ولكنه كان من المتعذر تجنب الذباب الذي يعذب الرجال كلما حاولوا النوم في اي ملجأ يجدونه . كما ان الحرارة فوق طاقة الاحتمال .

وعلى بعد ٨٠ ميلا من بنغازي يوجد طريق للقوافل يسمى «طريق العبد» . ولم يكن هذا الطريق يزيد عن مدق صغير مرصوف بعظام الجمال والبشر الذين ماتوا وهم سائرون عليه منذ قرون طويلة . وقد علم الالمان ان هذا الطريق لا بد من اجتيازه من كل جماعة مغيرة تحاول ان تقترب من الساحل . لذا قاموا بزرعه بالالغام المتفجرة بكميات كبيرة وعلى مدى واسع وقد اختفى نصفها في الرمال . وكانت خطة جوردن ان يقترب من المنطقة عند اول ضوء من النهار ثم يأخذ في ازالة المفرقعات عند ظهورها . وقد تم ذلك بنجاح وبعد نصف ساعة كان الطابور قد اجتاز منطقة الخطر ويتجه الى ناحية الشمال الغربي نحو الشاطىء .

وسرعان ما وصلوا الى ما ذكرهم بالحرب والمخاطر التي يتعرضون لها عند الهرب ، ففوق الرمال تبعثرت الدبابات المحترقة والعربات المدمرة وفي بعضها هياكل الجنود الذين كانوا فيها . وكذلك حطام الطائرات المتناثرة . ثم تغيرت الطبيعة من ارض صحراوية منبسطة الى ارض جبلية ومراع مغطاة بالاشجار والاعشاب وسرعان ما ظهر لهم «الجبل الاخضر» وعلم المغيرون ان

امامهم ساعات قليلة للوصول الى بنغازي .

وكانت تلك المنطقة الجبلية يرتادها باستمرار السنوسيون مع ماشيتهم واغنامهم ، وهي كثيرة المياه وتعطي غطاء ممتازا للقاعدة الامامية للمغيرين ، وكان السنوسي يكره الايطاليين ومن ثم فانهم كانوا يبتعدون عن هذه المنطقة وكذلك حلفاؤهم الالمان . واتخذ الطابور بحذر ، طريقه فوق مدقات صغيرة عبر الوديان حتى وصلوا الى نقطة فوق المرتفع المتحكم فوق السهل والذي يبعد ٢٠ ميلا عن بنغازي . وكان ذلك في ٢٠ مايو وحدد وقت الغارة في الليلة التالية — وقام فيتزوري ماكلين في حقيبة نومه وهو يرى وميض القنابل التي تلقيها الطائرات البريطانية فوق بنغازي . وكانت هذه هي آخر غارة لهم حتى يتم لسترلنج ورجاله ان يقوموا بغارتهم ثم يغادروا المدينة .

وفي صباح اليوم التالي أعدت الترتيبات الروتينية : فقد كشفوا عن المؤن والذخيرة وتظفوا البنادق والمدافع ، واختبروا المعدات . ونفخت الزوارق المطاطية وربطت بعناية استعدادا لنقلها الى مكان العمل . ولم يتم ذلك العمل في جو هادىء كما كان يفضل سترلنج ولكنه تم امام جماعة الاعراب الثرثارين ، وكان احدهم يرتدي قبعة ويحمل معه مظلة ويتكلم اللغة الايطالية بطلاقة . ولذا حامت حوله الشبهات في ان يكون جاسوسا للايطاليين . ولكن عندما استقر الرأي حياله بحثوا عنه فوجدوه قد اختفى بصورة غامضة .

والى جانب ذلك كان يوجد عمل آخر وهو اخراج المفرقعات والقنابل والالغام المغناطيسية ثم وضع كبسولات التفجير والتوقيت الزمني لها . ورغم ان هذه العملية عادية بالنسبة الى رجال «خدمة الطيران الخاصة» فانها يجب ان تتم بمنتهى العناية والحذر لان المفرقعات لا تهتم بالاشخاص . وفي تلك الرحلة ، سمع صوت فرقعة حادة كأنه صوت اطـــلاق مسدس وشوهد الرقيب سيكنج وهو يمسك بيده وتبين ان احدى الكبسولات بها خطأ وانفجرت في يده وهو يمسك بها . رغم ان جرحه لم يكن بالغا فقد كان من الواضح انه لا يمكنه الذهاب مع الجماعة المغيرة . وبذلك سنحت الفرصة لراندولف تشرشل الذي كان سوف يترك مع جوردون ورجـــال مجموعة الصحراء ، في ان يقنع سترلنج بأخذه معه ولم يكن احد يشك في انه في حالة اللزوم او الخطر ، فان راندولف سوف يكون شجاعا غير انهم خشوا في حالة قيامهم بهجوم ان يفاجئهم راندولف بصوته الجهوري في الوقت غير المناسب .

وعند الساعة الخامسة انطلق سترلنج ورجالة الخمسة الى بنغازي وهم جوردون الستي وفيتزوري ماكلين وراندولف تشرشل والرقيبان رونر وكوبر ، وفي حراستهم قوة من مجموعة الصحراء مكونة من سيارتين ومعهم جوردون . ووسط الظلام المتزايد اتخذت الجماعة طريقها عبر احد الوديان وهي ترتفع وتنخفض فوق الارض الوعرة وتحاول تجنب الصخور الكبيرة المعترضة للطريق . وكان التقدم بطيئا حتى انهم قطعوا ١٤ ميلا في مدى ساعات ليصلوا الى الطريق .

وعندما وصلوا الى الطريق عادت سيارات «مجموعة الصحراء» الى القاعدة الامامية ، وبعد كلمات وداع قصيرة قام سترلنج بقيادة سيارته التي أشعل أضواءها كلها ، واتجه ألى بنغازي . ولكن ، ما ان سارت السيارة بسرعة على الطريق ، حتى تبين ان الرحلة عبر الوادي قد عملت اثرها وانفجرت احدى العجلات . واضطر سترلنج الى ايقاف سيارته بجوار الطريق ، ونزل «الرقيبان» يحاولان اصلاح الخلل ، ولكن بدون فائدة . ولما كان لا بد من اتمام العملية في بحر الساعات الست المتبقية من الظلام ، امرهم سترلنج بالعودة ثانية الى السيارة وقادها بحالتها وصوت العجلة المتفجرة واحتكاكها بالارض يزداد نكرا . وشعر فيتزوري ماكلين بأنهم ليسوا جماعة من المغيرين بل سيارة أطفاء الحرائق قاصدين اطفاء نيران مشتعلة مصحوبين بذلك الصوت المزعج كأنه جرس الخطر . وعلى كل ، فلم يلاحظ احد شيئا . وكل معالم الحياة التي شاهدوها ، هي نيران مضارب الاعراب تلتمع كأنها النجوم في الظلام . ولم تظهر أمامهم حواجز او نقاط للتفتيش. وسرعان ما ظهرت لهم ألاسلاك الشائكة التي تحيط بمطار (رجما) الى اليمين. وعلمت الجماعة ان بنغازي لا يمكن ان تكون بعيدة عنهم . وهذه الحقيقة جاءت لهم بشيء من الراحة ، والى جانب الرحلة المزعجة من صوت السيارة كانت الرحلة باردة جدا فالريح الباردة كانت تخترق المعاطف والملابس الثقيلة .

وعندما وصلوا الى منعطف في الطريق ، شاهد سترلنج ضوءا احمر في وسطه ، على بعد مائة ياردة ، فضغط على فرامل السيارة وأوقفها بالقرب من عمود سميك من الخشب ممتد بحدود الطريق ، وشاهد حارسا يحمل مدفعا رشاشا يقترب من ماكلين الذي كان يجلس الى جواره من الناحية الاخرى ، وعلى بعد ، رأى عدة مدافع رشاشة مصوبة نحوهم لمعاونة الحارس المتقدم . وعرف على الفور انه لا نجاة لهم الا بالخداع ؛ فان

محاولة شق طريقهم بالقوة لن تجدي . وكان الحارس في تلك اللحظة يسأل ماكلين عمن هم ، ورد ماكلين عليه بالايطالية : «نحن ضباط أركان حرب وفي عجلة من امرنا» . ووقف الحارس محدقا ، يشك فيهم ثم نظر حول السيارة . ومن الواضح انه راى ان الملابس التي يرتدونها بريطانية وليست ايطالية . غير انه بعد لحظات من التردد اعطاهم التحية العسكرية وقال لهم: «يجب عليكم ان تطلوا مصابيح سيارتكم» وفتح لهم الحاجز . وواصلت السيارة سيرها الى بنغازي . اما الحادث الثاني ، فقد جاء كأنه مغامرة من مغامرات الافلام في هوليود . فقد قابلتهم سيارة من الجهـــة المضادة ، وأنوارها مضاءة وما ان خلفوها وراءهم حتى استدارت وأخذت تطاردهم . . وظن المغيرون انها دورية من البوليس الحربي قد أبلغتها عنهم نقطة الحراسة التي تركوها لكي تتبعهم . فما كان من سترلنج الا ان أبطأ بسيارته حتى يدعها تمر غير انها رفضت ان تفعل ذلك وهي تحافظ على المسافة بينهما . فما كان منه الا ان زاد من سرعة السيارة ثانية . وكذلك فعلت السيارة الاخرى التي تطاردهم . ولم يكن هناك سوى حل واحد وهو الاندفاع الى بنغازي بسرعة ٨٠ ميلا ثم الالتفاف في شارع جانبيواطفاء الانوار والانتظار. والذي حدث ، ان السيارة المطاردة مضت في طريقها ، مارة بهم وسرعان ما ذهب صوتها .

غير إن الامور تأزمت بدلا من ان تتحسن . فسرعان ما سمعوا صوت صفارات الانذار وحيث انه سبق الاتفاق مع سلاح الطيران الملكي الا يغيروا على البلدة فيتلك الليلة فكان ذلك معناه الواضح ان هناك أنذارا عاما. وزاد تأكدهم عندما شاهدوا الصواريخ تنفجر في الجو واحـــدا بعد الآخر . وأصبحت سيارة هيئة أركان الحرب التي معهم معوقة لهم اكثر منها ذات فائدة ولذلك قرر سترلنج تركها بعد ان جردها من كل المعدات ، ووضع قنبلة في الخلف مؤقتة للانفجار بعد نصف ساعة ، ثم قاد جماعته خلال الحي الغربي في المدينة . ورغم انهم سمعوا اصوات اشخاص يعدون على بعد ، فلم يتعرض لهم احـــد وبدا كأنهم يصلون الـــى حافة الماء دون حوادث .

وعندما عبروا، خلال حائط متهدم، الطريق فوجئوا بشرطي ايطالي أمامهم . وهنا أنقذ ماكلين الموقف فقد تقدم منهوسأله : «لماذا هذا الصراخ؟» فكان الجواب : «لا شيء . . مجرد غارة بريطانية ملعونة» ولم يحاول ماكلين ان يظهر تعجله في الذهاب فقد استمر واقفا مع الحارس وسأله : «أليس

من المحتمل ان يرسل البريطانيون بعض القوات الارضية ضد البلدة ؟» فكان رد الشرطي عليه بهزة من كتفيه : «ان ذلك مستبعد جدا لان قوات البريطانيين قد انسحبت الى الحدود المصرية» فقام ماكلين بتحيته وتمنى له ليلة طيبة .

ومضت الجماعة في طريقها حتى غاب الشرطي عن نظرها .. وهنا ، قرر سترلنج ان يعيد النظر في الموقف . فلو ان رأي الشرطي الايطالي في أن الصواريخ وصفارات الانذار ما هي الا تحذير من غارة بريطانية ، فلماذا الحذر أذن ، فعليهم ان يعودوا الى السيارة وينزعوا منها القنبلة ويركبونها وبذلك يوفروا على انفسهم مشقة السير الطويل في العودة الى مكان اللقاء بعد انتهاء المأمورية . وكان قد مر على تركهم للسيارة ٢٥ دقيقة فسارعوا بنزع القنبلة وقذفها في جوف بئر قريب . وسرعان ما انفجرت داخل البئر .

ووجدوا انهم يبعدون عن الميناء مسافة ميل ، فأمر سترلنج راندولف تشرشل والرقيب روز بأن يأخذا السيارة ويخفونها ، بينما عليه هو وماكلين والرقيب كوبر ومعهم جوردون ألستن كمرشد ان يحملوا الزوارق والمتفجرات في أكياس المهمات . وسرعان ما انطلقوا وصوت أقدامهم على بلاط الشارع يتردد صداه في الحي الاوروبي . وبجوار السلك الشائك الذي يحمي الميناء شاهد ماكلين حارسا فسار اليه وقال له ان سيارتهم قد تعطلت وانهم يبحثون عن مكان لقضاء الليل فهل يستطيع الحارس أن يرشدهم الى احد الامكنة، ولم يكن الحارس مهتما بمساعدتهم كما انه لم يكن شاكا فيهم . ومن ثم تركهم فمضوا حتى وجدوا مكانا في الاسلاك الشائكة يستطيعون الدخول منه . وسحبوا معداتهم خلفهم واتخذوا طريقهم بين الروافع وخط السكة الحديد الى حافة الماء . وعندما وصلوا هناك وجدوا انهم في نفس البقعة الموجودة على اللسان الرملي الذي سبق اختيارها على النموذج في الاسكندرية لانزال الزوارق في الماء . وهنا قرر سترلنج تقسيم الجماعة مؤقتا ، فأخذ «الستن» لاستكشاف الميناء بينما انهمك ماكلين وكوبر في فك الزوارق وتموينها .

ولم يكن هناك قمر في السماء غير ان النجوم كانت لامعة ، والرؤية واضحة وجيدة وسطح الماء ممتدا كأنه صفيحة من الزئبق كما وصفه ماكلين فيما بعد . بدا لهم انه قريب منهم هياكل السفن الراسية في هدوء في الميناء . وبينما هم منهمكون في نفخ الزوارق صدر من العوامات بها صوت

واكثر من ذلك سوءا ان العوامات لم تنجح في فتح الزوارق ، فقام ماكلين بسرعة بالتفتيش في الوصلات التي تربطها بالزورق واصلحها ثم اخذ ينفخها . وبينما هو يعمل في ذلك ، سمع صوتا من احدى البواخر الراسية ينادي بالسؤال عن سبب هذه الضجة ، فأجابه ماكلين : «نحن بوليس حربي» غير ان الصوت المتسائل لم يقتنع وعاد يسأل عما يفعلونه فأجابه ماكلين بصوت الواثق «إن هذا ليس من شأنك». وبعد ذلك ساد صمت رجيم ، غير ان الزورق لم ينتفخ ومن الواضح انه ثقب بعد ان تم التفتيش عليه في ذلك الصباح .. وكان الحل الوحيد هو احضار الزورق الثاني من السيارة . فعاد ماكلين ومعه كوبر فوجدا راندولف تشرشل يحاول اخفاء السيارة داخل مبنى متهدم من القنابل ، وذلك في حضور مجموعة من الاعراب . غير انهما لم يهتما الا بالحصول على الزورق والعودة بسرعة خلال الاسلاك الشائكة الى حافة الماء . ولكن ما ان بدآ ينفخان الزورق حتى تبين لهما ان ذلك الزورق الثاني قد ثقب ايضا . وسرعان ما عاد سترلنج والستن وعرفا الانباء السيئة . وكانت هذه العمليات كلها قد اكلت من الليل كل ساعاته ولم يبق امامهم سوى نصف ساعة . ولمدة دقائق ، فكروا في ان يضعوا قنابلهم في عربات السكك الحديدية ، غير ان هذه اهداف غير ذات اهمية اذا قيست بالمطلوب الاساسي وهو تدمير البواخر في الميناء . وعلى ذلك ، فان العملية تعتبر فاشلة .

وكانت لحظات مريرة . ولم يكن لديهم وقت للجلوس والتفكير ، لان عليهم ان يزيلوا كل آثار زيارتهم . فعليهم ان يجمعوا الزوارق والمعدات ويحملوها ثانية الى السيارة .

وفي وقت ما ، وجد ماكلين نفسه وجها لوجه امام جندي صومالي ، حيث كانت الصومال تتبع ايطاليا في ذلك الوقت . ومرة اخرى كان عليه ان يستخدم لباقته وفصاحته في اللغة لكي ينجو بنفسه دون ان يشير شبهات . واخذت الحوادث شكلا دراماتيكيا كأنها احد افلام هيتشكوك . فقد وجد المغيرون انفسهم وقد حملوا المعدات لكي يعبروا الاسلاك الشائكة متجهين الى السيارة ان عددهم قد زاد من اربعة الى ستة . فقد سار خلفهم حارسان مسلحان فماذا يفعلون ؟ فلو اطلقوا عليهم الرصاص لايقظوا كل الحامية في المنطقة وكان من المستحيل ان يمروا بحملهم من خلال الاسلاك الشائكة . والحل الوحيد هو الاتجاه رأسا الى الباب الرئيسي معتمدين على الخداع في شق طريقهم . وفي مثل هذه اللحظات الحرجة كما يعرف كل

انسان وجد نفسه في مأزق حرج ، فان العقل يعمل بغاية السرعة في جلاء ووضوح . وبدا لهم الزمن محدودا حتى ان الخطوة الواحدة كانت تستغرق زمنا طويلا . وعندما وصلت الجماعة الى البوابة الرئيسية للميناء كان ماكلين واثقا تماما من دوره الذي عليه ان يؤديه .

فبالايطالية ، خاطب حارس البوابة وطلب منه احضار قائد الحرس . وسرعان ما ظهر هذا القائد وهو جندي برتبة «رقيب» وهو يربط سراويله. فقال له ماكلين انه ضابط من هيئة أركان الحرب العامة وسأله عما اذا كان هو المسؤول عن أمن الميناء . وعندما أقر «الرقيب» ذلك ، اخذ ماكلين يقرعه ويؤنبه بشدة وكيف أمكنه ان يتجول هو وجماعته داخل الميناء دون ان يعترضهم احد من الحراس ؟ ان ذلك شيء مثير للغضب لانه من المحتمل ان يكونوا من المخربين الاعداء . . غير ان الايطالي قال ان ذلك بعيد الاحتمال وقد شعر بالراحة والخلاص عندما اخبره ماكلين انه يعفو عنه هذه المرة ولكن عليه ان يكون اكثر انتباها في الحراسة .

وبعد ذلك عبر ماكلين البوابة في خطوة سريعة ، يتبعه الآخرون . وكان مأزقا نجوا منه بصعوبة .

وكان النهار قد طلع عندما وصلت الجماعة المغيرة الى السيارة . ومن الواضح ان كل امكانيات العودة الى مكان المقابلة قد انتهت . ونجح تشرشل والرقيب روز في ادخال السيارة داخل منزل متهدم ومن الممكن اخفاؤها بنجاح بوسائل التمويه الموجودة تحت أيديهم . ولكن اين يمكن للجماعة نفسها ان تختبىء ؟ ولحسن طالعهم وجدوا الغرف العلوية في المنزل الذي به السيارة خالية ، وباستطاعتهم ان يناموا فيها خلال النهار ولديهم الطعام في السيارة وكذلك «الروم» ومن الممكن ان تكون الاحوال اكثر من هذا سوءا . لكن هل يخونهم العرب ويخبرون الايطاليين بمكانهم ؟ وكان من الصعب التأكد من ذلك .

ومع طلوع النهار اخذت المدينة تستيقظ . وأخذت القاذفات الالمانية والايطالية تزمجر وتزأر وهي عائدة من الجبهة . وشاهدوا السكان المدنيين الذين قضوا الليل خارج المدينة ليتجنبوا قذف الطائرات قد اخذوا في العودة لكي يطهوا طعام افطارهم .

ونظر سترلنج الى الناحية الاخرى من الطريق فرأى مقر القيادة الالمانية المحلية ، والضباط يخرجون ويدخلون منها ورجال الاشارة يغادرونها

حاملين الرسائل . وزاد توترهم لقربهم من مقر القيادة .

ومر النهار ولم يحدث شيء . وتناوب الرجال الستة الحراسة كل بدوره بينما يستغرق الباقون في النوم . اما بالنسبة لسترلنج فقد كان يوما من أتعس الايام . فقد أمكنه الوصول الى الميناء مرتين ، وفي كل مرة تخونه هذه الزوارق الملعونة . فلماذا يحدث هذا ؟ وما الذي حدث ؟ فهل كان هناك سر في الزوارق عجز عن الوصول اليه ؟

وارتفعت الشمس الى عنان السماء وببطء اخذت تنحدر نحو الغروب. ولم يحدث شيء حتى جاءت نوبة تشرشل في المراقبة حوالي الساعة الخامسة وقت تناول الشاي ، ثم سمعوا صوت اقدام على درج المنزل وسرعان ما ظهر لهم بحار ايطالي . وعندما رأى تشرشل ولحيته ذات الستة ايام سارع بالعودة على اعقابه . فهل سوف يخطر السلطات ؟ ولمدة ساعتين عاشها المغيرون على أعصابهم واسلحتهم في ايديهم وقنابلهم اليدوية معدة وقد عزموا على ان يستقبلوا اي مقتحم عليهم بالحديد والنار . ولم يأت احد ، وغلب على ظنهم ان البحار لم يدخل المنزل الا طمعا في النهب . وشعروا بالراحة الكبرى والخلاص عندما ارخى الليل سدوله .

وعندما هدأ كل شيء قاد سترلنج جماعته من مخبئهم لكي يقوموا بجولة في المدينة ، فقد كان يكره كرها شديدا ان يغادرها بدون ان ينزل بالعدو بعض الاضرار . وعندما وصلوا الى حافة الماء وجدوا ان زوارق الطوربيد مربوطة على طول المرسى . وبدون تردد قرر ان يحاول تدميرها وعاد الى السيارة لاحضار بعض القنابل ، ولكن بدون فائدة ، فعندما رجع الى الميناء وجد الحراس واقفين حول الزوارق وبدوا له انهم على اتم حذر واستعداد بعكس السابقين .

ولم يكن امامه سوى العودة من الطريق الذي جاء منه ، وهو طريق «نينا» ، ومرة اخرى كان على ماكلين ان يشق لهم طريقا بالكلام عند الحواجز ، وبعد ذلك سارت السيارة بين مجموعة من سيارات قافلة عسكرية وأخيرا وصلوا الى مكان اللقاء في الساعة السادسة صباحا متأخرين عن الميعاد ٢٤ ساعة . وجدوا رجال مجموعة الصحراء يتناولون طعام افطارهم قبل الرحيل .

وفي مدة ساعة بدأت رحلة العودة الى سيوة . وقد تم قطع المسافة في عدة ايام بدون حوادث . غير ان الرحلة من سيوة الى القاهرة كانت

مخالفة حيث قاد سترلنج السيارة بسرعة فانقلبت . وكسر ذراع ماكلين وعظمة الترقوة كما أصيب تشرشل وعاد الى انجلترا للعلاج . أما سترلنج نفسه ، فقد كسرت عظمة معصمه مما منعه من القيادة لو حتى أمكنـــــه الخروج من المستشفى . وكانت العملية كلها ذات نهاية مفجعة ولكن سترلنج كان مصمما على عدم الاعتراف بالهزيمة وضرورة العودة الى بنغازي مرة اخــرى .

الفصل السابع

انقذوا مالطة

كان ربيع سنة ١٩٤٢ من أشد أوقات القلق بالنسبة للحلفاء وعلى الاخص بالنسبة لونستون تشرشل . فمنذ فبراير وهو يراقب الموقف المتدهور في مالطة تلك القلعة البريطانية وسط البحر الابيض المتوسط . واخذ يحث اوكنلك على شن هجوم في الصحراء . غير ان اوكنلك استمر يجيبه بأنه لا يستطيع الهجوم حتى يصل عدد رجاله ومعداته الى القوة المناسبة . مما جعل تشرشل يسأله في تقريع عما يفعله بستماية وخمسين الف رجل مقيدين في كشوف التعيينات . وفي ٢٠ ابريل أبرق الجنرال دوبي ألى تشرشل من مالطة يقول «قد تحدث أسوأ الامور اذا لم نستطع ان نعوض حاجاتنا الاساسية وخاصة الدقيق والذخيرة على ان يتم ذلك في أسرع وقت . انها مسألة حياة او موت». ورغم اخطار اوكنلك بذلك رفض ان ينزع قدميه من الارض او ان يتحرك وهو يدفع بأن المخاطرة كبيرة في حالة الهجوم ، غير ان تشرشل عاد يقول له «ان خسارة مالطة تعتبر خسارة من الدرجة الاولى للامبراطورية البريطانية ومن المحتمل ان تكون مميتة في المدى الطويل بالنسبة للدفاع عن البحر الابيض المتوسط» ولكي يزيد من قوة رايه حصل على المساندة التامة من رئيس هيئة أركان الحرب العامة

وعلى مساندة وزارة الحرب . وبذلك أمكنه ان يخبر أوكنلك انه اذا لم يهاجم في ميعاد اقصاه منتصف شهر يونيو حيث ستقوم قافلة من ١٧ باخـــرة بالاقتراب من مالطة لتموينها ، فان عليه ان يترك قيادته . واضطر اوكنلك للخضوع . غير انه كان قد تأخر اكثر من اللازم . ففي ٢٦ مايو شن روميل هجوما خاطفا . وبعد قتال عنيف استمر خمسة ايام ظن بعدها اوكنلك ان روميل قد استنفد ما في طاقته وكان ظنه خاطئا .

وفي ٢ يونيو ابرق تشرشل الى اوكنلك يقول «انه لا حاجة بي لاظهار مدى اهمية وصول قوافلنا سليمة الى مالطة . واني واثق انك سوف تتخذ الخطوات اللازمة لكي تمكن الطائرات التي نحرسها وخاصة تلك من طراز «بوميتر» من ان تعمل من مهابط قريبة اكثر ما يمكن من ناحية الغرب» .

وقد وصل سترلنج الى القاهرة اثناء تلك الظروف . ووجـــد نفسه مدعوا الى القيادة العامة حيث قابل مدير العمليات الحربية . وقد قيل له ان هناك قافلة من البواخر التجارية سوف تحاول ان تصل الى مالطـــة بحمولتها الثمينة في الاسبوع الثاني من يونيه . وانه يجب اتخاذ كل وسيلة لكي يقلل من تهديد العدو لها من الجو . وان معونة وحدة خدمة الطيران الخاصة مطلوبة جدا لتحقيق هذا . فهل يمكن ان تحقق ما هو مطلوب منها؟ ولم يستغرق سترلنج وقتا طويلا في تنفيذ خطته . وكانت الخطة هـــي الاغارة على ثمانية مطارات للعدو في ليلة ١٣–١٤ يونيو . ومن هذه المطارات يوجد اثنان في منطقة بنغازي ، وثلاثة حول درنة ومرطبة التي تقع على الشاطىء وتبعد مائة ميل عن طبرق . ومطار آخر عند بارك والمطار الاخير هو مطار هيركليون على جزيرة كريت .

والعملية كانت معقدة والوقت قصير . وفي القاعدة في «كبريت» ، كان النشاط مستمرا من الصباح حتى المساء . ويتم تعديل الخطط كلما جاءت المخابرات بمعلومات جديدة .

وتقرر ان يقوم بالغارة على درنة الملازم جوردان من الفرنسيين الاحرار غير ان ذلك ادى الى مشاكل من نوع خاص ، فبالاضافة الى المسافة الطويلة التي كان على المغيرين قطعها فقد كان معروفا ان هذه المنطقة الجبلية مملوءة بالتعزيزات الالمانية ورجال وحدات خطوط المواصلات. ولحسن الطالع عرف سترلنج عن وحدة اسمها (الوحدة الخاصة للاستجواب) وهي وحدة مشكلة من مجموعة صغيرة من اليهود الالمان من سكان فلسطين . وكان أفـــراد الوحدة هذه قد تطوعوا للذهاب وراء خطوط الالمان وهم يرتـــدون ملابس

الفيلق الافريقي الالماني وكان تدريبهم بالغا حد الدقة لدرجة انهم دربوا على الكلام باللغة الدارجة الالمانية وقائدهم ، وهو النقيب «هربرت بك» حامل وسام صليب الحرب ، قد جند جنديين من ضباط الصف الالمان الذين خدموا في الفرقة الاجنبية الفرنسية ، وأعلنوا انهم معادون للنازية . واسم الرجلين بروكنر وايسر ورغم أنهما كانا يعملان بشكل يثير الاعجاب ، فان باقي اعضاء الوحدة من يهود فلسطين الالمان لم يثقوا بهما ابدا ، واعتبروا تجنيدهما في الوحدة خطأ بالغا . وان مدى الحكم على هذا الرأي سوف يظهر فيما بعد .

وكان سترلنج هو اول من طلب خدمات الوحدة . وقد ابتهج قائدها النقيب (بك) من لقائه . وكانت الفكرة هي ان على وحدة «الوحدة الخاصة للاستجواب» ان تحصل على ثلاث عربات من عربات الفيلق الافريقي الالماني. وان تتولى قيادة دوريات الفرنسيين الى المطارات حول درنة . وقال (بك) انه يعتقد ان ذلك شيء بسيط . واقترح ان تتلاقى الوحدتان في سيوة يوم ٨ يونيو . غير ان سترلنج الذي يعرف كم يستغرق الاعداد من اجل غارة اقترح ان يكون اللقاء في تاريخ سابق وتم الاتفاق على ذلك .

وفي ٦ يونيو انطلق المغيرون يقودهم في الايام الاربعة الاولى حرس من رجال «مجموعة الصحراء بعيدة المدى» . ثم قام رجال «الوحدة الخاصة للاستجواب» بارتداء ملابسهم الالمانية واستعدوا للتوجه الى درنة . وقد سار كل شيء بسهولة عدا تفصيل واحد مهم . فقد قام رجال المخابرات باعطاء كلمة السر خلال شهر مايو وهي كلمة «نيوم» غير انهم فشلوا في تأكيد كلمة السر الخاصة بشهر يونيو . وقد أدى هذا الى جعل الامور صعبة . غير انه لم يكن هناك تفكير في التراجع. وعلى ذلك اتجه المغيرون شمالا ناحية الجبال . وقد ارتدى «بك» زي نفر ، وارتدى بروكنر و ايسر زي ضباط الصف وازدحم رجال الفرنسيين الاحرار في مؤخرة السيارات تحت الاغطية . وكل رجل منهم قد تسلح تسليحا ثقيلا ليس فقط بالمسدسات والمدافع الرشاشة القصيرة ، ولكن كذلك بالسونكيات الحادة والقنابل اليدوية .

وظلت السيارات طوال الصباح تسير الى الامام وواصلت السير حتى العصر .

وفي الساعة الرابعة ، عندما كانوا يدورون حول احد المنحنيات شاهد «بك» نقطة تفتيش امامهم وبجوارها غرفة للحرس . كما شاهد الدبابات

في مراكز الحراسة فقاد سيارته اليها وطلب رفع الحاجز . وخيل اليه لمدى لحظة ان الحارس الايطالي سوف ينفذ ما امر به . غير انه تردد وطلب كلمة المرور او كلمة السر . فأجابه بك بأنه غادر مركزه في مهمة الى الصحراء قبل ان تتغير كلمة السر القديمة وهي (نيوم) وقام (بك) بتمثيل دوره بمهارة، فقد أخرج اوامره المزورة وأخذ يلوح بها في وجه الحارس . غير ان الحارس لم يتزحزح عن موقفه . ولزيادة الامور سوءاً وصل ضابط برتبة «رائد» وطلب من (الالمان) ان يدخلوا معه الى غرفة الحراسة حتى يناقشوا الامر حول زجاجة من النبيذ ، فقبلوا الدعوة .. وقد أوضح له (بك) ان مهمته هي تسليم السيارات الى ورشة الصيانة في درنة بأكبر سرعة ممكنة غير انه كان من الواضح ان الرائد الايطالي كان قلقا للغاية وهو يرد ان اوامره صريحة وهي الا يسمح لاحد بالمرور ما لم يعط كلمة السر . وأخيراً تظاهر روكنر بنفاد الصبر وهدد بأن يقدم تقريراً الى وحدته بأن الحراس الايطاليين يعطلون المهام العاجلة . وبذلك اضطر (الرائد) الى التنازل عن موقفه .

وعادوا الى السيارات ليركبوها، غير ان احد (الرقباء) الالمان عطل (بك) واتضح انه يحاول ان يساعدهم . فقد ذكر لهم انه من الحكمة ان يتوقفوا بعد ميل واحد لقضاء الليل ، لان الخطر من المخربين الاعداء يجب عدم تجاهلها فهم يأتون من الصحراء ويدمرون السيارات .

وبذلك ، فانه بعد نصف ساعة وجد (بك) نفسه ورجاله معسكرين وسط رجال سلاح الطيران الالماني والفيلق الافريقي ، وتعشوا معهم بينما بقي الفرنسيون الاحرار صامتين في سياراتهم . غير ان (بك) لم يكن يريد ان يعتمد على حسن طالعه لاكثر من هذا . وبعد ساعة واحدة كان الطابور يتحرك من المعسكر على الطريق حتى اذا بعدوا عنه بمسافة كافية، عسكروا لقضاء الليل دون ازعاج .

وكان اليوم التالي هو الثالث عشر من يونيو وقد خطط للعملية ان تنفذ في تلك الليلة ومن الواضح ان خطوتهم التالية هي الحصول على كلمة السر . ومن ثم فقد أرسلوا ضابطي الصف ألالمانيين الى أقرب مركز حراسة ليسألوا عنها بكل جراة . وقد نجحا في ذلك دون مشقة وكانت كلمة السر من مقطعين فكلمة الاعتراض هي «سيستا» وكلمة الاجابة هي «الدورادو». وعند الظهر قاد (بك) طابوره الى مقربة من المطار ، وعلى بعد خمسة اميال منه على ان يكون ألمكان الذي وصلوا اليه هذا هو نقطة اللقاء بعد اتمام المهمة. وكانت المهمة التالية هي ان يصحبوا جوردان وجماعته لكي يلقوا نظرة على

المنطقة . والطريقة التي اتبعوها هي أن يبقوهم مختفين في السيارة بينما تدور بهم حول المنطقة . وكل ما رأوه هو ما امكنهم ملاحظته من خلال ثقب في جسم السيارة . وأراد جوردان ان يستطلع المطارات الاربعة واثنان منها في درنة والباقيان في مرطبة غير ان رأي (بك) ان المخاطر تكون كبيرة ولم يستطلعوا سوى المطارين حول درنة . وقبل حلول الظلام عادت الجماعة الى مكان اللقاء بدون حادث يعترضهم .

ثم اعطى جوردان أوامره وكنت انه على الرقيب تورنرت واربعة من الرجال ان يتولوا احد المطارين في مرطبة . وعلى جوردان والرقيب بورمونت ان يقود كل منهما اربعة رجال ويتجهوا الى مطارات درنة وأن يركبوا جميعا في نفس السيارة التي يقودها بروكنر الذي عليه ان يسقـــط جوردان وجماعته اولا ، ثم الجماعة الثانية فيما بعد .

وعندما سارت السيارة خيل الى جوردان أنها تسير ببطء بالغ ومضت قبل ان يقطعوا خمسة أميال . ثم اوقف بروكنر السيارة بجوار سينما درنة وهو يقول ان الماكينة قد سخنت وانه فقد مفتاح صندوق الادوات . وبعد ذلك تركهم واتجه الى غرفة الحراس وهو يدعي بأنه سيحضر واحدا آخر . . غير ان جوردان سمع وقع خطوات سريعة وفي لمح البصر وجـــد السيارة محاصرة وسمعت صيحة عالية (على كل الفرنسيين في السيارة ان يخرجوا منها) . . ولشدة جزعه ، تحقق جوردان من شكوكه التي ساورته . وهكذا خانهم ضابط الصف الالماني .

غير ان الرجال الفرنسيين لم يتقبلوا الامر بهدوء . فقد قام احدهم بقذف قنبلة يدوية وأخذ الباقون يطلقون نيران مدافعهم الرشاشة وتفرق الالمان . اما جوردان الذي نزع نفسه من الرجل الذين حملوه من السيارة فقد اخذ يعدو للنجاة بحياته . وبعد بضع لحظات حدث انفجار عنيف . ونظر جوردان خلفه فوجد السيارة قد أحاط بها اللهب وعندما وجد احد رجال القوة من (وحدة الاستجواب الخاصة) نفسه محاصرا داخل السيارة فقد قذف بقنبلة يدوية وسط المتفجرات .

وبعد ساعتين وصل جوردان الى نقطة اللقاء وذكر (لبك) الانباء السيئة. فما الذي يمكن عمله ؟ فمن الواضح ان الناجين لن يحاولوا القدوم الى مكان اللقاء ولكنهم سوف يذهبون الى مكان اللقاء مع رجال (مجموعة الصحراء بعيدة المدى) الذي يبعد ٢٥ ميلا الى الخلف . وعلى ذلك ، فقد سارعا بالرحيل للاتصال برجال مجموعة الصحراء قبل حلول الفجر . وظلوا لمدة

سبعة ايام ينتظرون الناجين ولكن لم يحضر احد منهم . وفيما بعد علموا انهم جميعا ، اما قتلوا او وقعوا في الاسر .

وقد كافأ الالمان بروكنر فقد أخذوه في طائرة الى برلين حيث أنعم عليه هتلر بوسام «الصليب الذهبي» .

وبينما كان جوردان ورجاله في درنة كان سترلنج و بادي مين والملازم زيرنهلد يقودون رجالهم للاغارة على المطارات الثلاثة الرئيسية في بنغازي ، وقد قطعوا الرحلة مرة اخرى مع دورية روبن جوردن من مجموعة الصحراء وصحب سترلنج في هذه الرحلة (الرقيبان) المخلصان كوبر وسيكنج .. وسار الرجال على أقدامهم وهدفهم مطار (بنينا) الذي كان يستخدمه الالمان كقاعدة للاصلاحات . وهو مزدحم بالطائرات كما شاهدوه في المرة السابقة، بالاضافة الى ورش الصيانة والحظائر . ولم يجدوا أسلاكا شائكة حول المطار وتقدموا الى ألمطار في الظلام دون ان يعترضهم احد . ثم سمعوا صوت طائرة في السماء ولشدة جزع سترلنج تحقق من ان سلاح الطيران البريطاني سوف يضرب القاعدة رغم الوعد القاطع الذي اخذه بألا تغير الطائر ت على المطار في تلك الليلة . وسرعان ما سقطت القنابل وحدثت انفجارات في شتى انحاء المطار . ولم تسفر الغارة عن اصابة شيء كثير ومعظم القنابل التي سقطت لم تكن دقيقة في تصويبها غير ان الطائرات المغيرة وقد أشبعت رغبتها في القذف فقد سارعت بالعودة .

ووقف سترلنج وجماعته على أقدامهم دون ان يصاب احد منهم بعد ان كانوا قد انطرحوا ارضا لتفادي القذف الجوي . ثم اقتربوا من حظائر الطائرات حيث شاهدوا الحراس يقومون بنوبة حراستهم . فانتظر اللحظة المناسبة وأشار الى «الرقيبين» وتسللوا الى داخل احدى الحظائر المظلمة التي وجدوها تعج بالآلات ومعدات الاصلاحات ، واخذوا يعملون بسرعة كلما ابتعد الحارس عن الباب في دورته حول مركز حراسته . ولصقوا قنابلهم ثم تحولوا الى حظيرة اخرى وكانت مضاءة . فأمر سترلنج زميليه بالمراقبة للبب ثم اخذ ينتقل من مكان الى مكان ويضع قنابله . ووضع بعضها على مقربة من بعض الميكانيكيين الالمان وهم يعملون على آلاتهم على بعد ياردات منه ولم يلاحظوه . ثم انتقل الى حظيرة ثالثة حيث وجد طائرتين من طراز (يونكرز ٥٢) وهي من القاذفات كما وجد ٤٠ محركا للطيران معبأة في صناديقها ، فوضع قنابله في كل ما رآه . وما كاد ينتهي من عمله حتى اخذ الالمان يغيرون الحراس . ولمدة خيل اليه انهم سوف ينسفون بنفس

قنابلهم ألتي وضعوها ــ وقد استخدم سترلنج قنابل زمنية مدتها نصف ساعة ــ غير انهم غافلوا الحراس ثم تسللوا من الحظيرة . ثم تحول سترلنج بشجاعة فائقة الى غرفة الحرس ونادى على رئيس الحراس الجالس على مكتبه وقال له «امسك هذه» وقذفه بقنبلة نزع ابرتها منها لكي تنفجر على الفور . وصاح الالماني جزعا من القنبلة التي سقطت بين يديه وقد عرفها «لا . لا» فأغلق سترلنج الباب وعدا بسرعة وسمع صوت انفجار القنبلة التي دكت المبنى وقتلت من فيه . وسار الرجال بعيدين عن المطار بمسافة كافية ثم استداروا ناحية المطار وأخذوا يرقبون الانفجارات المتوالية وهي تهزه هزا. فقد طارت الحظائر في الهواء ومعها الطائرت وانتشر ضوء اللهب حتى امكنت رؤيته من على بعد اميال . وهكذا نجحت الغارة التي قام بها ثلاثة رجال ومعهم ٦٠ قنبلة من طراز (لويس) .

وفي نفس الوقت كان بادي مين ومعه رجلان هما وربرتون وستوري والرقيب ليلي منهمكين في عملهم في مطار «بركة» ، فقد وصلوا الى المطار بسهولة وما كادوا يصلون حتى اخذت الطائرات تقذف المطار ، وقنابل المدافع المضادة تصعد الى السماء والمشاعل التي تلقيها الطائرات لايضاح الهدف تسقط على الارض ، وأصيبت احدى طائرات سلاح الجو البريطاني وسقطت غير بعيدة منهم .

وبعد زمان مر كأنه الدهر ، أقلعت الطائرات المغيرة ، وقرر بادي مين ان يتقدم لتنفيذ مهمته ، وقال الرقيب ليلي يصف ما حدث :

«أرسلني بادي مين لوضع قنبلة في اقرب طائرة ، فنادى عليّ احد الحراس الذي كان موجودا أسفل جناح الطائرة ، ولما لم أرد عليه أطلق علي النار ، فانبطحت ارضا . وفي نفس الوقت ألقى بادي مين قنبلة ، فحدث وهج ساطع وخيل الي ان الحارس قد انقسم نصفين وكان هناك حراس آخرون عند الطائرة فأطلقوا النار ولعدة دقائق حدثت معركة ضارية . وقررنا التسلل على بطوننا بعيدا عنهم . وأطلقوا النار علينا مرارا ونحن نحاول مغادرة المطار . ولكن قبل ان نغادره وضعنا قنابلنا في مستودع للبترول» .

وبينما كان ذلك دائرا في «بركة» كان النقيب زيرن هلد ورجاله يقاتلون في معركة ضارية في مطار «بركة» الرئيسي الذي يبعد عن الاول بعدة أميال . وقبل أن تنتهي المعركة كانوا قد دمروا أحدى عشرة طائرة وقتلوا حراسها .

وفي نفس الوقت ، كانت مجموعة من المغيرين الفرنسيين تحت قيادة جاكييه تدمر مستودعات الوقود والتموين في «بارك» .

وقد فهم الالمان ان هذه الغارات جزء من عملية كبيرة مخططة وذلك بعد ان اعترف لهم بروكنر بكل شيء ، فقاموا بارسال طوابير ميكانيكية لكي تقضي على المغيرين . وقد اصطدم بادي مين وجماعته باحدى هذه الطوابير وهو عائد الى الجبل . واضطروا الى الانبطاح على الارض لمدة ساعتين . وعندما بدأ النهار ، قرر «مين» ان على الجماعة ان تنقسم الى قسمين . وسار هو ومعه ستوري وتركوا ليلي و وربرتون وقد قرر وربرتون ان يحاول النجاة بنفسه فأخذ يعدو غير ان الالمان اصابوه برصاص المدافع الرشاشة فقتل . اما ليلي فبعد ان استمر مختبئا لعدة ساعات قرر ان خير طريقة للنجاة هي ان يدفن معداته ويعود ماشيا خلال المعسكر الالماني الذي وجد نفسه فيه وكتب فيما بعد يقول :

«ظللت سائرا لمدة ميلين بجوار المعسكر حتى وصلت الخط الحديدي الذي يعبر سهل بنغازي . وهو بقعة مهجورة ولم أر من علامات الحياة فيها الا بعض الاعراب على بعد وهم يعملون في حقولهم . وكنت بالقرب من الطريق الذي يسير محاذيا للسكة الحديد وفجأة رأيت ضابطا ايطاليا يركب دراجة . وتمهل في سيره عندما رآني . ثم ترجل من فوق الدراجة وترك بندقيته معلقة على عمودها . وأشار لي انني اصبحت اسيرا له وان علي ان أعود معه الى بنغازي» .

غير ان ليلي لم تكن لديه النية في ان يقع في الاسر فأمسك بتلابيب الايطالي ونجح في خنقه . وسار في طريقه حتى وصل الى معسكر للاعراب السنوسيين .. وبقي فيه ساعتين ثم أخبره مضيفوه ان هناك جنديان يقتربان من المعسكر ، فنظر اليهما فعرف فيهما بادي مين وستوري . وفي تلك الليلة ارتقى الثلاثة الجبل وفي اليوم التالي انضموا الى سترلنج وجماعته .

غير ان الحوادث التي يشيب لها الولدان وقصص الهرب والمغامرات هذه لم تقلل من تعطش سترلنج و مين للمخاطر . فقاما باقتراض سيارة من «مجموعة الصحراء» وأخذا معهما خمسة رجال واتجهوا ثانية الى بنغازي، وهدفهم هو تقدير مدى الخسائر التي الحقوها بالعدو في الليلة السابقة بالاضافة الى اطلاق النار على اي شيء يثير انتباههم على الطريق . ولم يمض وقت قصير حتى اصطدموا بنقطة تفتيش المانية مجهزة بالحواجز والاسلاك الشائكة ، فطلبوا منهم ان يعطوا كلمة السر . وبالطبع لم يستطيعوا الا ان

يذكروا الكلمة القديمة للسر، ورفعوا سقاطات الامان من اسلحتهم واستعدوا لاطلاق النار، فخاف الحارس وسمح لهم بالمرور . غير ان القوة عرفت أنه لا بد قد اخبر نقطة الحراسة التالية بالتليفون وانه لا فائدة من محاولة دخول بنغازي .

ثم شاهدوا محطةوقود مملوءة بالصهاريج الكبيرة فوضعوا فيها قنابلهم. وبعد ذلك اتجهوا الى السيارات والمجرورات الثقيلة ألتي وجدوها فدمروها وأطلقوا النار على معسكر وجدوه بالقرب من الطريق .

واختاروا في عودتهم طريق «وادي قطارة» ألذي يمتد محاذيا للطريق العام ولكن المشكلة انه لم تكن هناك سوى نقطة عبور واحدة على بعد خمسة اميال . وبذلك، كان عليهم ان يتجهوا اليها مستعينين بالبوصلة . وبعد فترة وجيزة، ظهرت سيارة كان من الواضح انها تقصد أن تسد عليهم الطريق .. فما كان منهم الا ان أشعلوا مصابيح سيارتهم وقادوها بغاية السرعة فوق الارض الوعرة . وكانت رحلة شاقة وراكبو السيارة متعلقون بها بكل قواهم للمحافظة على حياتهم . ثم تبين لهم أنهم قد سبقوا العدو وكان ما يشغلهم هو هل وصلوا الى النقطة الصحيحة للعبور خلال الوادي لان اي خطأ معناه حدوث فاجعة . وخيل اليهم انهم نجحوا في ذلك والسيارة الالمانية ألتي تطاردهم خلفهم ببضع مئت من الياردات . ثم شاهد سترلنج نقطة العبور فأدار عجلة القيادة واتجه الى نقطة العبور وما كادوا يفعلون حتى توقف الالمان عن مطاردتهم خشية ان يقعوا في كمين خلال الممر الضيق . وسرعان ما وصلوا الى نقطة اللقاء .

ولكن مغامرات الليل لم تنته بعد . ففي طريق العودة الى مكان اللقاء شموا رائحة دخان وتحقق «ليلي» من ان هناك فتيلا مشتعلا ــ وبكل سرعة قفز الجميع من السيارة. وقبل ان يقفزوا منها بثوان، حدث أنفجار كبير وتحطمت السيارة الى قطع صغيرة . وتلك الليلة أمضوها في معسكر للاعراب السنوسيين . وتمكن سترلنج من اقناع شيخ المضرب من ان يرسل احد رجاله الى روبن جوردون ليرسلوا لهم وسائل نقل .

وفي اليوم التالي وصلوا الى مكان اللقاء الآمن بعض الشيء، وبدأوا رحلتهم الى سيوة . ومرت بضعة اسابيع قبل ان يعرف سترلنج تفاصيل الغارة على كريت، التي قادها الضابط ألفرنسي «برج» احد المجندين في وحدة «خدمة الطيران الخاصة» وهو اللورد جاليكو ابن الادميرال البريطاني المشهور قائد البحرية البريطانية في ألحرب العالمية الاولى . فبعد عدة مغامرات مثيرة امكن للمغيرين ان يدمروا اكثر من ٢١ طائرة الى جانب

مستودعات الوقود وعديد من المنشآت . وبذلك ، فانه بحساب هذه الطائرات مع الاحدى عشرة المدمرة في «بركة» وخمسة دمرها سترلنج نفسه، بالاضافة الى منشآت الصيانة وثلاثين محركا ، فان العملية تعتبر ناجحة كثيرا .

ولكن ، من المؤسف ، رغم هذا ، ان القافلة المتجهة الى مالطة وعدد سفنها ١٧ سفينة ، لم يصل منها الى ميناء فالتا بمالطة سوى باخرتين .. غير أن حمولة هاتين الباخرتين امكنت الحامية المدافعة عن الجزيرة ان تدافع لمدة شهرين حتى وصلت خمس بواخر اخرى .

وكذلك ، فان من المحزن ذكر دفع روميل للجيش الثامن واجباره على الارتداد خلال شهر يوليو من ذلك العام حتى وصل الى العلمين . كما ان طبرق تلك القلعة المنيعة التي صمدت طويلا سقطت في أيدي الاعداء . وفيها كميات كبيرة من المؤن. ونتيجة لهذا، فان البحرية البريطانية انسحبت من ميناء الاسكندرية زيادة في الاحتياط . وتراجعت قاذفات السلاح الجوي الملكي ألى فلسطين . وفي القاهرة ، قام رجال هيئة أركان الحرب بحرق آلاف الاطنان من المستندات . وبعد سنتين من القتال المرير وإزهاق آلاف الارواح ، أصبح الموقف سيئا للغاية كما لم يكن عليه .

الفصل الثامن

غارة العربات الجيب

في ذلك الوقت من السنة ، كان هناك هبوط في الروح المعنوية في القاهرة ولندن . غير أن سترلنج رفض ان يتطرق اليأس الى قلبه بل بث الحماسة في زوح وحدته الى اكثر مما كانت عليه . وقال لهم ان الوقت هو الزمان المناسب لبناء قاعدة دائمة خلف خطوط العدو لكي تشن منها الغارات في سلسلة متتابعة على مطارات العدو . وغادرت ألوحدة معسكر «كبريت» يوم ٢ يوليو وشقت طريقها الى الغرب على طول حافة منخفض القطارة قبل ان تتجه شمالا الى «المدق» الممتد من «واحة» ومرسي مطروح . وهناك في بقعة بين التلال تبعد ٧٠ ميلا عن الساحل ، عاش رجال «وحدة الطيران الخاصة» و«مجموعة الصحراء بعيدة المدى» لبضعة اسابيع ، وخلال تلك المدة قاموا بنسف خطوط للانابيب غرب مرسي مطروح وأغاروا على المطارات حول بلدة فوكة .. وفي يوم ٨ يوليو كان روبين جوردون ومعه زيزنهلد على الطريق الساحلي بجوار فوكة حيث قاما بنسف وسائل النقل وعربات الوقود . وبعد ثلاثة ايام وهم يحاولون اعادة العملية كشفتهم ثلاث طائرات مقاتلة من طراز «ميش» قبل حلول الظلام بفترة وجيزة وأطلقت عليهم

النيران . وطبقا لما ذكره كندي شو يصف الحادث فقال «لقد جرح جوردون جرحا مميتا ولكنه كان ما زال محتفظا بوعيه وظل يصدر الاوامر حتى النهاية . ومات قبل ان يمكن حمله الى الطبيب في القاعدة على بعد ٥٠ ميلا» . وقد كان مقررا ان تكون هذه العملية هي آخر عمليات جوردون مع «مجموعة الصحراء بعيدة المدى» ثم عليه ان ينضم الى سترلنج كنائب له في القيادة . غير ان القدر لم يشأ ذلك ، وقد كانت صفاته الممتازة في القيادة والتنظيم محط اعجاب كل فرد عمل معه . وتسبب موته بعد كل هذه المغامرات في الصحراء الى ايجاد صدمة بالنسبة لرجال الوحدتين .

ولم يقتنع سترلنج بالتوأكل والكسل اعتمادا على ما حققه من نجاح . بل اخذ يجرب طرقا جديدة لمهاجمة المطارات . وخطرت له فكرة استخدام سيارات «ألجيب» وفي كل سيارة سائقها واثنان من رجال المدفعية لتشغيل المدافع الاربعة من طراز فيكرز المركبة عليها . ثم تتقدم السيارات في تشكيل منظم يقوده سترلنج. ثم تدور السيارات حول المطار وتصب عليه وابلا من رصاص الاشارة والرصاص المتفجر الذي يدمر اي طائرة في محيط أطلاق النيران . وترك سترلنج رجاله الثلاثين بجوار منخفض القطارة وذهب الى القاعدة للحصول على المعدات اللازمة . وبعد ثمانية ايام عاد ومعه عشرون سيارة جيب وبعض السيارات حمولة ٣ طن . وكثير من المؤن التي كانت تنقصهم . وكانت لديه خطة لمحاولة تطبيق نظريته بالقيام بغارة على مطار «سيدي حبشي» بثماني عشرة سيارة جيب .. وكان ذلك المطار هو المطار الرئيسي للالمان بجوار بلدة فوكة .

ولا بد أولا في هذه العمليات ان تجري عدة تجارب ، فقادوا السيارات الجيب في الصحراء على هيئة طابورين ويفصل بين كل سيارة واخرى خمس ياردات . وقاد سترلنج ومعه مرشده ميكل سادلر القوة ، وسيارته في منتصف المسافة بين الطابورين والى الامام بعض الشيء منهما . وعندما اطلق من مسدسه طلقة اشارة ، تحركت السيارات الجيب في تشكيل على هيئة حرف ٧ ثم فتحت نيرانها على الاجنحة ، ولكثرة البنادق والمدافع في السيارة الجيب الصغيرة كان هناك خطر اصابة السائق وكان عليهم – أي السائقين – ان يبقوا ثابتين في مراكزهم وحتى وهم يناورون بسياراتهم. فوق الارض الوعرة . وكان الانحناء الى الامام او الاضطجاع الى الخلف معناه الاطاحة برؤوسهم . وقد استمر التدريب حتى أيقن سترلنج بنجاحه . ولحسن الحظ لم يصب أحد من السائقين .

وفي ٢٦ يوليو كان الجميع على اتم استعداد . وبعد غروب الشمس تحركت قوة سيارات الجيب من قاعدتها عند بيرشالدر وتجمعت صوب سيدي حبشي على بعد ٤٠ ميلا الى الشمال الغربي ، وكتب ستيف هاستنج الذي اشترك في الغارة فيما بعد يقول «في اول الامر كانت الرؤية سهلة. ولم نتخذ تشكيلا معيّنا ، واتخذ السائقون طريقهم اما قليلا الى اليمين او قليلا الى اليسار من السائق الذي أمامهم وهم يتتبعون زوبعة الغبار التي اثارها بسيارته . وأحيانا تصطدم السيارة بصخرة او ترتفع وتنخفض بقوة مما يجعل الاسلحة التي بها تقرقع ومعها صناديق الذخيرة وصفائح الماء . وكانت السرعة في العادة ٢٠ ميلا فوق ارض رملية مستوية ذات حصى . وبين فترة وأخرى تصل الى احدى المرتفعات فتتجمع السيارات حتى نجد لنا مخرجا اما بالانحدار او التسلق . وارتفعت سحابات الغبار . وقرقعت الماكينات عند تغيير السرعة ، ثم تتجمع السيارات ثانية واحدة خلف الاخرى ثم تنتشر على مستوى واحد .

ووصلوا الى «المدق» المؤدي الى سيوة وقد ارتفع القمر في السماء، وطلب سترلنج منهم التوقف ، بينما قام سادلر بتركيب «توتولديته» وهي آلة الرصد على حاملها ورصد مكانهم . وكانت مسؤوليته خطيرة . لانه من الضروري ان يصلوا الى المطار رأسا . فلو اخطأ في حسابه قليلا لضاع عليهم الوقت وذهب عامل المفاجأة . غير ان كل شيء سار في طريقه سيرا حسنا ، وتحرك الطابور ثانية ، وازدادت وعورة الارض ، وانفجرت عجلات السيارات واحدة بعد الاخرى .

ولما كان تغيير كل عجلة يستغرق حوالي خمس دقائق ، فقد ضاعت منهم ساعة . وفجأة ، بدت لهم من خلال الظلام هضبة عالية تعترض طريق التقدم ، فكيف يمكن معالجة هذه المشكلة ؟ فأرسل سترلنج السيارات يمنة ويسرة للاستكشاف حتى توصلوا الى احد الوديان وخلال هذا الوادي سارت السيارات حتى أمكنها ان تصل الى قمة الهضبة . وكان قد مضى على بدء الرحلة ثلاث ساعات وتوقفوا مرة اخرى للكشف على الاسلحة وليستعدوا آخر استعداداتهم .

فحسب حسابات سادلر ، لم تكن سيدي حبشي تبعد عنهم اكثر من عشرة أميال ناحية الشمال . واتجهوا اليها فوق ارض متضرسة . واختفى القمر خلف السحب وأخذت الظلال غير المحدودة تتحرك فوق الارض . وسرعان ما شاهدوا العلامات التي تدلهم على اقترابهم من الطريق الساحلي.

وهي آثار السيارات المدمرة ومخلفات المعركة .. ثم اخذت تبدو لهم مظاهر العمران .

وهنا ، أوقف سترلنج قوته ، حيث حدث ان الهدف لا يبعد عنهم اكثر من ميل واحد والى الامام راسا . ولم يكن يبدو لهم شيء ، والمنطقة كلها يغشاها السكون . ومعنى ذلك اما ان المطار انواره مطفأة ، او انه مخفي بعناية . غير ان سترلنج اعطى امره باختصار ، وتشكلت السيارات في طابورين وتحركت الى الامام في بطء فوق الارض الوعرة . ثم حدثت المفاجأة ، فقد شاهد الرجال امامهم على بعد نصف ميل المطار وقد اضيء كله من اوله لآخره بالاضواء الساطعة . فما الذي حدث ؟.. هل عرف الالمان بقدومهم ؟..، هل انتهت المسألة ؟.. وخلال بضع ثوان جاءهم الرد ، فقد ظهرت قاذفة قنابل لكي تهبط .

وفي هذه اللحظة ، اظهر سترلنج مهارته الفائقة في القيادة ، فبدون اي تردد اتجه راسا الى ممر الهبوط وما كادت عجلات القاذفة تلامس الارض حتى اخذ في اطلاق النيران وتابعته في ذلك الثمانية والستون مدفعا المركبة في السيارات الجيب .. وسمع انفجار عنيف واخذت طلقات الاشارة تزحف زحفا على الارض مكتسحة امامها كل شيء .

ثم أطلق سترلنج اشارة ذات لون معين فقامت السيارات بتشكيل نفسها على هيئة ٧ . وهي لا تزال تسير بأقصى سرعة فوق ممر الهبوط ، ورأى سترلنج امامه صفوفا وراء صفوف من الطائرات من مختلف الانواع . طائرات من طراز ستوكا المنقضة وهينكل ويونكرز ٥٢ .

وكأنما كانت نصف قوة سلاح الطيران الالماني قد تجمعت للقيام باستعراض وهذا هدف رائع . ومن مسافات قصيرة ، إنطلق الرصاص ينصب على الطائرات وأخذت هذه تحترق . وسرعان ما بدا كأن المطار كله قد أضيء باللهب ، وعلى البعد ، شاهدوا الحراس في المطار يسارعون الى مراكز حراستهم .. وسقطت قنبلة مورتر خلف سيارة سترلنج ، واخذ مدفع (بريدا) يطلق عليهم نيرانه وقد كتب احد الرجال يقول :

«أحسست بشيء ساخن يمر تحت مقعدي ، ثم صوت اصطدام وتغطى وجهي ووجه المدفع الامامي بالبترول . وحدثت لحظة عميت فيها عن الرؤية وعن التفكير . ومسحنا الزيت من على وجوهنا واعيننا وانحرفت السيارة الجيب بعنف واصطدمت بنتوء في الارض ثم ارتدت وواصلت عملها

بمعجزة » .

وفي ذلك الوقت كانت سيارة سترلنج قـــد تعطلت وتوقفت القوة ، وتقدمت سيارة جيب لالتقاطه فطلب من المدفعي في السيارة ان يركـــز الضرب على مدفع «البريدا» وسرعان ما أسكت المدفع . وعندمـــا توقفت السيارات كلها أعطاهم سترلنج تعليماته الجديدة ، وهي : يجب عليهم ان يتابعوا عملهم في الاحاطة بالمطار كله وأن يطلقوا النار على كل طائرة يجدونها ثم عليهم بعد ذلك ان يهربوا . وأداروا آلات السيارات وتحرك التشكيل الى الامام . ولم يطلقوا النيران سدى بل كانوا يطلقونها كلما ظهر هدف لهم . وكانت معظم الطائرات الموجودة من طراز يونكرز ٥٢ . وقد دمروها كلها . وقد سار بادي مين الى آخر طائرة منها ووضع فيها بيده قنبلة ليتأكد من تمام تدميرها .

وهكذا انتهت اول غارة للسيارات الجيب . ولكن المشكلة كانت في العودة عبر الصحراء الى قاعدتهم متجنبين الانتقام الذي سوف يحاول ان ينزله بهم سلاح الطيران الالماني عند الفجر . وقد دمرت في الغارة من القوة ثلاث سيارات جيب وأصيبت ستة رغم انها كانت صالحة للسير .

وقد صدرت أوامر سترلنج للقوة بأن تتفرق . وعلى كل فرقة ان تبعد اكبر مسافة يمكنها قطعها قبل بزوغ الصباح . ثم عليها ان تخفي سياراتها بالشباك ووسائل التمويه وتختبىء طوال النهار . وعند حلول ظلام اليوم التالي عليها ان تتجه الى مكان اللقاء بأي طريق تختاره . ثم قام بالتفتيش عليهم فوجد ان الاصابات هي قتيل واحد يعمل مدفعيا أماميا لعربة جيب اصابتهِ شظية من قنابل المورتر . وقرر سترلنج ان يأخذ معه جثمانه في صحبة فرقته التي كانت مكونة من ٤ سيارات جيب و١٤ رجلا .

وقاد سترلنج سيارته بأسرع ما يمكنه وهو يعلم انه مهما حدث فيجب اولا ان يصلوا الى مكان يختبئون فيه ، وتعطلت سيارة جيب فأخذوا منها العجلة الاحتياطية وما فيها من وقود ثم نسفوها . وازدحم الرجال فـــي السيارات الثلاث الباقية وتابعوا سيرهم وقطعوا ٣٠ ميلا وقد بدأت تباشير النهار في الظهور ناحية الشرق وظلت الصحراء أمامهم عارية بدون ظهور مكان يصلح للاختباء فيه .

ولحسن الحظ ظهرت بعد نصف ساعة «شابورة» غطت الارض وأخفت السيارات من الجو . ثم وجدت الجماعة نفسها على حافة منخفض ينحدر ١٥ قدما الى أسفل ووسط المنخفض توجد بعـــض الاعشاب والشجيرات الشوكية . وبسرعة قاموا باخفاء السيارات بينها ونشروا فوقهـــا شباك

التمويه . واقتلعوا الحشائش من الارض وقذفوا بها فوق الشباك حتى أصبح لا يمكن رؤية السيارات من على بعد بضع ياردات . وشعروا بشيء من الراحة . وبعد ان تناولوا قدحا من الشاي قاموا بدفن المدفعي القتيل في الرمال . وأصبح لديهم الوقت الكافي للنوم . ولم تكتشفهم الطائرات رغم ان قاذفة منقضة ، حلقت فوقهم وسمعوا صوت اطلاق النيران من بعيد . وعندما حل الظلام واصلت السيارات رحلتها حتى وصلت الى نقطة اللقاء . ووجدوا معظم الجماعات الاخرى قد وصلت والباقي وصل فيما بعد . غير ان زفرهلد الفرنسي قتل في الطريــــق من ضرب الطائرات «الاستوكا» التي سمعها سترلنج .

وحسبوا ما حققته الغارة ، وقد اعتقد سترلنج انه في غارته تلك قد دمر ٢٥ طائرة واعطب اثنتي عشرة طائرة اخرى . وغالبية الطائرات المدمرة من طراز يونكرز ٥٢ وكل منها تساوي عدة طائرات من الانواع الاخرى . ولم يكن هذا هو كل حصيلة الغارة فقد قام الملازم ويلدر من رجال مجموعــــة الصحراء بعيدة المدى ، بغارة جانبية على مطــــار باجويش حيث دمر ١٥ طائرة . وقد كتب سترلنج في تقريره انه قد حطم في الغارة ٤٠ طائرة . وبذلك اصبح جملة ما دمرته الوحدة تحت قيادته من طائرات العدو ٢٥٦ طائــرة .

وبالطبع ، غضب الالمان لخسائرهم الفادحة في غارة السيارات الجيب، وأخذوا يرسلون طوابير ميكانيكية الى الصحراء لصيد رجال «خدمة الطيران الخاصة» و«مجموعة الصحراء بعيدة المدى» . واضطر سترلنج الى ترك قاعدته الصحراوية واتجه شرقا عبر منخفض القطارة . وسرعان ما وصلت وحدته الى قاعدتها الاساسية في «كبريت» وقدم نفسه الى القيادة العامة منتظرا صدور أوامر جديدة .

الفصل التاسع

قصة الزنابق وباقي الزهور

في شهر اغسطس ١٩٤٢ كان الموقف متجمدا في ميـــدان الشرق الاوسط . فالجيش البريطاني والجيش الالماني يواجهان بعضهما على جبهة عرضها ٣٠ ميلا عند العلمين . غير ان المظهر كثيرا ما يكون خداعا ، فكلا الطرفين كان يحاول جلب التعزيزات في الوقت المناسب للصراع القـــادم بينهما في نهاية الشهر . وكان راي الحلفاء ان روميل سوف يبدأ هجومه في ٣١ من الشهر غير انه يمكن صد هجومه بدون صعوبة . وفي اكتوبر ، عندما يتوفر للحلفاء التفوق الاكبر من جانب الرجال والمعدات فانهـــم يتحولون الى الهجوم بدورهم . وفي هذه المرة سوف يكره روميل علـــى التراجع للمرة الاخيرة ، ويعقب ذلك تدميره . وخلال فترة الانتظار هذه ، حدثت تغييرات هامة في قيادة الحلفاء ، فقد حل الجنرال الكسندر محل الجنرال اوكنلك وتولى مونتجمري قيادة الجيش الثامن بدلا من الجنرال ريتشي .. وبحلول هؤلاء القادة الجدد حل جو جديد من الحركة والثقة.

وقد وضع هؤلاء القادة الخطط لعمليات عسكرية خاصة أطلق عليها اسماء الزهور : الزنابق وسقوط الجليد والتيوليب والبنفسج تستهدف الاغارة على مواقع العدو الحساسة ومراكز التموين والموانىء والمطارات وتقوم بتنفيذها وحدات كوماندوس و«مجموعة الصحراء بعيدة المدى» .

وكان الغرض من كل هذه العمليات تعطيل مواصلات روميل وبذلك فانها تقلل من سرعة حشد التموين والامداد لجيشه . فميناءا طبرق وبنغازي هما المرفآن الرئيسيان له وأي ضرر يلحق بما سوف يكون له اثره الكبير في اضعافه وتنفيذ هذه العمليات يتطلب قطع مسافات طويلة جدا حول بحر الرمال . والسبب في ذلك ان روميل قد قطع تماما المداخل الى منخفض القطارة وبذلك ، فان الطرق المختصرة عبر المنخفض لم يعد في الامكان الاستفادة منها . ومرة اخرى تظهر هنا الخبرة الطويلة لرجال «مجموعة الصحراء بعيدة المدى» في معرفة المناطق الجنوبية للصحراء ، رغم انه كانت هناك مشكلة كميات التموين الضخمة اللازمة لهذه العمليات وخاصة من الماء .

ورغم الحماس الذي أبداه رجال هيئة اركان الحرب حيال هذه العمليات ، فقد نظر اليها رجال الصحراء الخبيرون بها نظرة شك وعدم ثقة منذ البداية . فقد وجدوا ان انباء هذه الغارات قد تسربت الى الكثيرين. وسمعوا الاحاديث الكثيرة بين الجنود في المطاعم والبارت تدور حول هذه العمليات . حتى ان ضابطا فرنسيا حرا ، ذكر ان عامل البار في الفندق الذي كان يقيم فيه في بيروت وهو رجل مشكوك فيه انه جاسوس يعمل لحساب الالمان قد قال له كل شيء يختص بهذه العمليات من تاريخ القيام بها الى الطرق التي سوف يسلكونها والاهداف المقصودة وذلك حتى قبل ان تبدأ هذه العمليات . غير ان رجال المخابرات في هيئة أركان الحرب العامة كانوا واثقين من عدم تسرب مثل هذه الانباء ، قائلين ان القواعد المغار عليها سوف يكون في حراستها عدد من جنود الدرجة الثالثة من الايطاليين والالمان وليس هناك ما يخشى .

غير ان سترلنج لم يحب ابدا المهمة الموكولة اليه ، وهي تقضي بأن يقود ٢٢٠ رجلا اغلبهم غير مدرب على مثل هذه العمليات . ولنقلهم مع معداتهم

يلزمهم ٤٠ سيارة ومعها ٤٠ سيارة جيب مسلحة . وقد ناقش سترلنج مع أركان حرب العمليات كيف يمكن لمثل هذه القوة وعددها الكبير ان تحقق اية مفاجأة ، والمفاجأة كانت دائما هي السلاح الرئيسي للمغيرين . وبالاضافة الى ذلك ذكر انه يكره أن يكون مرتبطا بجدول زمني جامد وانه يفضل ان يقوم بغارته عندما يشعر بان الوقت المناسب قد حان . وقد كتب فيما بعد يقول : «ان الخطة كلها بنيت على اساس مخالف لكل القواعد التي قامت عليها وحدة «خدمة الطيران الخاصة» .

ورغم هذا فانه خلال المناقشات والمجادلات التي تمت في القيادة العامة اصبح واضحا له انه اذا لم ينفذ ما هو مطلوب منه فان فرصته في توسيع الوحدة وتطويرها الى القوة الضاربة القوية التي يتمناها سوف تذهب ضياعا . واذا كان سترلنج يكره غارة بنغازي فقد كان يحب غارة طبرق أقل منها . وقد نبتت فكرة الغارة من لدن احد الخبراء في شؤون العرب وهو العقيد جون هاسلدن الذي أوحى بها الى القيادة العامة . ورغم ان هاسلدن كان رجلا خلابا وذكيا فلم يكن قد سبق له ان قاد رجالا في معركة دع عنك قيادتهم اثناء غارة . والمفروض ان تكون غارته هذه هي اكبر الغارات . وعليه ان يقود مجموعة من وحدة «خدمة الطيران الخاصة» التي أطلق عليها اسم القوة «ب» في حراسة مجموعة الصحراء بعيدة المدى ، ويخترق بها دفاعات طبرق عند الفسق ويستولي على مدخل للميناء عند مرسي سيكيوسك في الناحية الشرقية من الميناء وخارج الدفاعات الرئيسية رأسا. فاذا نجح في ذلك أنضمت اليه القوة «س» المكونة من مائة رجل بقيادة النقيب ماكفي من فرقة آرجيل وسوزرلند الجبليين الذين تم احضارهم من الاسكندرية في زوارق طوربيد . فاذا انضمت القوتان لبعضهما ، فعليهم ان يشقوا طريقهم نحو الغرب مستولين على الدفاعات الساحلية وبطاريات المدافع المضادة للطائرات التي يصادفونها .

وفي الساعة الثالثة والاربعين دقيقة ، تهبط القوة «أ» المشكلة من مشاة البحرية الملكية من مدمرتين وتستولي على المدافع الموجودة شمال البلدة وتدخل المدينة . ولتحويل انتباه المدافعين ، تقرر ان تقوم طائرات سلاح الطيران الملكي بالاغارة على طبرق اثناء الليل . وبمجرد مغادرتهم

للمنطقة تتدخل زوارق الطوربيد لمهاجمة البواخر الراسيـــة في الطرف الشرقي للميناء . وعندما يتم ذلك كله ، فعلى جماعات التدمير ان تنزل من المدمرات لتتم عملها .

والخطة ، كما ترى ، كانت خطة مجنونة في تعقيداتها ولكي تنجح ، كان لا بد من الارتباط والتوقيت التام بين العمليات الجوية والبرية والبحرية وان تكون المعلومات والبيانات المتوفرة لدى مخابرات القيادة العامة صحيحة.

اما العمليات الاخرى ضد واحة جالو و بارك فقد كانت أقل طموحـــا وتعقيدا .. غير ان المغيرين واجهوا المصاعب وأقلها قطع رحلة طولها ١٦٠٠ ميـــل .

وبعد التخطيط الدقيق والاعداد المتقن ، بدأت مراحل التنفيذ . ففي ليلة ٣١ أغسطس ، وهو اليوم الذي بدأ فيه روميل هجومه على الجيش الثامن عند العلمين ، قام دافيد لويد اوين والدورية «ي» من «مجموعـــة الصحراء بعيدة المدى» بقيادة القوة «ب» الى مصر العليا من القاهرة ثم عبر بهم أسفل بحر الرمال الاعظم في رحلة مدتها خمسة ايام الى واحة الكفرة ، وكانت الرحلة بالنسبة للجنود الذين ركبوا في مؤخرة السيارة رحلة شاقة، عانوا فيها من الظمأ والحرارة وقلة الراحة ولم يكن قد سبق لاحد منهم ان رأى الصحراء. . وكان منظر رجال «مجموعة الصحراء بعيدة المدى» ــ وهم الوحيدون المسموح لهم باطلاق لحاهم ــ يبعث في نفوسهم الرهبة.. وخيل اليهم انهم سائرون مع «لورنس العرب» في رحلة بالجمال . وكل ذلك من الاساطير التي نسجت ، وسمعوها عن رجال المجموعة .

وفي ٤ سبتمبر وصلت القوة الى واحة الكفرة التي أثارت دهشة رجال «الكوماندوز» بحجمها الهائل وبالنشاط الذي يملأ أركانها . وبعد يومين اتجهوا شمالا وقد اختار لويد أوين الطريق الذي يمر في الثغرة الواقعة بين جالو وبحر رمال كلانشو . ووجهته اولا الى حطية أتلا الواقعة على بعد ١٠٠ ميل من طبرق حيث يعلم ان هناك غطاء جيدا من الطائرات . ووصل الطابور يوم ١٠ سبتمبر في سلام الى هناك ، وهكذا أكملوا قطع مسافة ١٥٠٠ميل.

وفي نفس الوقت ، كان ايسون سميث ومعه (ب أ) و (ح أ) من دوريات «مجموعة الصحراء بعيدة المدى» في طريقه الى «بارك» . وفي ١١ سبتمبر

تركت (قوة دفاع السودان) الكفرة من اجل غارتهم على جالو وهي الغارة الهامة بالنسبة لكل الجماعات المغيرة لانها فشلت ، كان طريق النجاة يقطع عليهم .

وكذلك كانت قوة سترلنج سائرة في طريقها . وقد قرر ان الطريق الممكن قطعه بالنسبة لقوته المكونة من ٨٠ سيارة هو طريق بير زجن الذي يقع عند نقطة اتصال بحري الرمال «بحر الرمال الاعظم وبحر رمال كلانشو» والعنق الذي يربط البحرين يبلغ اتساعه ٢٠ ميلا من الرمال المتحركـــــة البيضاء التي تشكل نفسها على هيئة مرتفعات ووديان . وعبر هذه الارض سار الطابور بسرعة ١ ميل في الساعة . وما ان اجتازوا بير زجن حتى أصبح طريقهم على الحافة الغربية لبحر رمال كلانشو وخلال الثغرة المؤدية الـى جالـو .

ولما كان سترلنج يعلم ان لدى الحامية الموجودة في جالو جهاز ارسال لاسلكي مر بطابوره شرقي الواحة في وسط النهار عندمـــا تكون الشمس والحرارة على أشدها وبذلك تقلل من مدى الرؤية .

وبعد ثلاثة ايام وصلوا الى حماية الجبل وأوديته ومرتفعاته . وحتى ذلك الوقت ، اعتقدوا ان العدو لا يعلم شيئا عن وجودهم .

وبعد ان ضرب سترلنج معسكره للراحة ، كانت مهمته الاولى هـــي الاتصال بـ «بوب مالوت» العميل البريطاني الذي يعيش مع الاعراب وهو يرسل ارشاداته كلما استطاع ذلك الى القيادة عن تحركات العدو . وقد وجده ماكلين الذي كلف بالاتصال به ، مختبئا في احد الوديان . وبعد ان تناولا الطعام ، حصل منه على آخر المعلومات . ولم تكن المعلومات مشجعة، فقد كانت هناك تحركات للعدو وقد اظهر ذلك ان الغارة متوقعة من جانب العدو . وقرر سترلنج ان يقوم بتحرياته الشخصية ، فذهب وتكلم مـــع بعض «المشايخ» المحليين وكان رأيهم هم كذلك ان العدو قلق لانه يتوقع شيئا . والخطوة التالية التي اتخذها هي ارسال رسول الى بنغازي وهو عربي هارب من الجيش الايطالي أحضروه معهم لمثل هذه المهام .

وفي اليوم التالي عاد هذا الشخص ، وقد تهرأت أقدامه من السير ولم تكن قصته هو الآخر باعثة على البهجة . فقد وجد ان الحديث الدائر

على السنة الناس في الاسواق هو عن غارة مقبلة . وقد تم ترحيل بعض المدنيين ووصلت تعزيزات من الجنود الايطاليين وبعض الوحدات من المدافع الرشاشة الالمانية . وقد وضعوا الالغام عند مداخل المدينة . كما سمع حديثا عن تاريخ حدوث الغارة .

وبمواجهة هذه التطورات ، عقد سترلنج مع ماكلين و مالوت مؤتمرا وقد تقرر فيه ان يسألوا القيادة العامة تغيير الخطة . وكان الرد الذي وصل بعد بضع ساعات ان يواصلوا عملهم كما هو مقرر ويحافظوا على جـــدول التوقيت الزمني . والذي يبدو أن مناقشات تفاصيل الخطة وميعادها في الاسواق بين الناس كان غير ضار بالنسبة لرأي القيادة العامة !

وهكذا لم يكن امام سترلنج مفر من اعطاء أوامره . فعليهم عند هبوط الليل ان ينحدروا من المرتفعات ويقودوا المركبات عبر السهل حتى يصلوا الطريق الساحلي المرصوف وأن يتجهوا رأسا الى بنغازي ومينائها بمنتهى السرعة . وهم يشقون طريقهم بالقوة خلال الحواجز ونقاط التفتيش التي تعترض طريقهم وفي الوقت الذي يتم فيه ذلك ، على الجماعة الصغيرة ان تهاجم محطة اللاسلكي الايطالية الموجودة أسفل المرتفعات حتى لا تعطي نذيرا بوصولهم . وقد وعد رجال سلاح الطيران الملكي بقذف بنغازي لمدة ساعتين ابتداء من الساعة العاشرة مساء الى الساعة الحادية عشرة والدقيقة ٥٩ حتى يشتتوا انتباه العدو ويشغلونه .. وبذلك كان امل سترلنج ان تشق سيارته الجيب طريقها الى بنغازي في الساعة الثانية عشرة .

وبعد ان فتشوا على اسلحتهم ، وزود كل رجل بحاجته من الذخيرة، ومعدات النجاة الصحراوية ، وهي تشمل «خريطة من الحرير للصحـــراء الغربية» وبوصلة وزجاجة ماء .

ركبوا السيارات ، واتجه كريز بايلي مع جماعته الموكل لها مهاجمـــة محطة اللاسلكي الى المحطة لتدميرها . وتبعه باقي رجال القوة . وكـــان النزول من المرتفعات الى السهل صعبا جدا بالنسبة للمركبات ، حيث ان الدليل الاعرابي الذي يقودهم ساز بهم في الوادي الخاطىء . وبعد مناقشة سريعة في الظلام ، تقرر ان يتركوا الطريق ويبحثوا عن طريق آخر . وقد استغرق ذلك الكثير من الوقت . وعلى بعد ٪ كانوا يسمعون صوت القنابل

وهي تنهال على بنغازي . وما ان وصل الطابور الى الطريق الساحلـــي المرصوف حتى اصطف الطابور وساروا بسرعة . فالتأخير لم يكن ذي بال ، كما اعتقد سترلنج . والى الامام منهم ، وعلى مبعدة ، ظهر لهم حاجز فوق الطريق وقد احاطت به الاسلاك الشائكة . فأوقف سترلنج الطابور وذهب ليتحرى الامر . وبالبحث ، وجد ان الارض حول جانبي الحاجز غير مستوية وشك في وجود الغام مزروعة . ودعا سترلنج «بل كمبر» خبير الالغـــام للجماعة لاخذ رأيه ، وتقدم الخبير الى الامام ، وبعد أن جال في الظلام لفترة ، زحف الى حيث يوجد الحاجز وضغط على الترباس الموجود في الحاجز وترك العمود الحديدي الذي يغلق الحاجز فارتفع الى اعلى وصاح بابتهاج وقد فتح الحاجز «دعوا المعركة تبدأ» . وفي تلك اللحظة فتح العدو نيران مدافعه الرشاشة والمدافع من عيار ٢٠ مم حيث كان العدو مختبئا على كلا جانبي الطريق . ثم انضمت مدافع المورتر الى المدافع الرشاشـــة والمدافع عيار ٢٠ مم . واخترقت السيارة الاولى هذه الستارة من النيران وما كادت تفعل ذلك حتى أصيبت بطلقة في خزان الوقود وانفجرت وتبعتها في ذلك السيارة الثانية والثالثة . بينما عمدت باقي السيارات الى التفرق على جانبي الطريق في هيئة قوس وأخذت تطلق كل ما لديها من اسلحة حتى ضعفت نيران العدو . ولكن المسألة كانت مسألة وقت ليس الا حتى تحضر التعزيزات على جناح السرعة الى العدو . وعلى كل حال فان عامل المفاجأة كان قد فقد . ولم يكن هناك مناص من التراجع .

وطلع ضوء النهار بسرعة والمغيرون لا يزالون عند سفح المرتفعات . وقد منحتهم الوديان الضيقة بعض الحماية . ولكن قبل ان يمكنتهم الاختباء ظهرت الطائرات الالمانيـــة مقبلة بسرعة مـــن بنغازي وأخذت تهاجمهـــم بالقنابل والمدافع الرشاشة .

ولم يكن تصويبهم دقيقا . حتى أصابت طلقة موفقة احدى المركبات فانفجرت وبذلك حددت مكان الهدف . وكانت كلما أفرغت طائرة حمولتها، عادت الى بنغازي للتزود بالذخيرة ثم العودة .

وفي يوم ١٢ سبتمبر بينما كان هاسلدن ورجاله يتناولون عشاءهـــم عند «حطية عطا الله» استقل الليفتننانت كولونيل أنوين من رجال مشـــاة

البحرية الملكية ومعه ٣٨٢ من الضباط والجنود المدمرتين «زولو» و«سنج» في ميناء حيفا .

وفي الاسكندرية ركب رجال الكابتن ماكفي زوارق الطوربيد .

وفي صباح يوم ٦ سبتمبر تحركت قوة الصحراء من هاتلت أتلا الى منطقة يتوفر فيها ساتر على بعد ٤٠ ميلا من طبرق . وانتظروا هناك حتى يحين موعد بدء الغارة عن العصر . وكانت خطة هاسلدن هي السير بجرأة على الطريق الرئيسي عند الوصول اليه والاعتماد على الحظ في عدم اكتشاف الالمان لحقيقة هويتهم . وركبوا في ٤ سيارات من حمولة ٣ طن، وقاد الطابور الملازم دافيد لويد من «قوة الصحراء بعيدة المدى» حتى أوصلهم الى الطريق الرئيسي ثم ودعهم وعاد مع رجاله .

ووصلت قوة هاسلدن الى قمة المرتفع عند سيدي رزيق وزحفوا فوقه لمدة نصف ساعة قبل ان يحددوا مكانا مناسبا للهبوط من المرتفع وقابلتهم سيارتان المانيتان غير ان ركابهما لم يهتموا بهم . ثم حلقت طائرة فوق رؤوسهم وما لبثت ان اختفت . وواصلت السيارات طريقها حتى اول حدود منطقة طبرق التي تحيط بها الاسلاك الشائكة . وسارع الكابتن براي بارتداء ملابس ضابط الماني واستعد للاجابة على اي سؤال يسأله الحرس. ولكن الالمان لم يسألوا واكتفوا بالابتسام والتلويح لهم مع السماح لهم بالمرور . وعلى جانبي الطريق انتشرت المعسكرات الايطالية والالمانية وقام الضباط البريطانيون باعادة ارتداء الملابس البريطانية . ونزل الجنود من السيارات وأفرغوها من المعدات والاسلحة التي حملوها . وتحركت القوة لتدمير المدافع التي تحمي الميناء .

وحدث تغيير في الخطة . فقد كان كامبل ضعيفا وطلب هاسلدن من لنجتون ان يصحبه ويتولى القيادة بدلا عنه اذا انهار . ولكن لنجتون كان عليه مهمة اخرى وهي اعطاء الاشارة لزوارق الطوربيد وأن يكون على الشاطىء ليستقبلهم . واعتقد انه قادر على القيام بهذا .

ثم بدأ مدفع يطلق طلقات متقطعة على فترات . وهو الانذار بحدوث غارة جوية . ووصلت طائرات السلاح الجوي البريطاني في موعدها وبدأت

تقصف الميناء بقنابلها . كما وصل الكوماندوز في موعدهم وعبروا الوادي الى الارض المرتفعة التي تغطي الخليج من ناحية الغرب .

اما هاسلدن ، فقد انتقل الى احدى الفيلات مع جماعته بعد ان تغلب على حرسها من الايطاليين واسر جماعة منهم . وأخذ يستجوب ضابط الصف عن الدفاعات الساحلية .

وفي نفس الوقت كانت قوة من الكوماندوز تحت قيادة جراهام تايلور قد توجهت الى اعلى الهضبة لتدمير المدافع المنصوبة فوقها . ووجدوا أول مدفع غير محروس وليس عنده احد فدمروه . وعند انتقالهم الى موقع المدفع التالي اشتبكوا مع الجنود الموكلين به وقذفوهم بالقنابل اليدوية وقتلوا منهم عددا كبيرا . وعند منتصف الليل ارسلوا اشارة تفيد نجاحهم في مهمتهم .

ولكن هاسلدن في مقر قياته بالفيلا كان قلقا حيث لم تصل اشارة من المجور كامبل ورجاله . وفي ذلك الوقت وصلت زوارق الطوربيد الى الشاطىء واستعدت لانزال الرجال عندما تشاهد الاشارة المتفق عليها . ولم يعرف هاسلدن ان جماعة كامبل قد تعطلت . فعند وصولها الى هدفها تبين ان المدفع غير مدافع عنه . وقاد كامبل رجاله الى هدفهم التالي وهو معسكر برتين .

اما لنجتون فقد انطلق لتأدية مهمته وهي اطلاق الاشارة لزوارق الطوربيد ووجد ان عودته للفيلا لاحضار مصباح الاشارة سوف يستغرق وقتا طويلا . فانحدر ناحية البحر وأخذ يطلق الاشارة من بطاريته . ولكن ضوء البطارية كان ضعيفا والذي حدث هو ان زوارق الطوربيد لم تر الاشارة ، كما ان الاضواء المرشدة التي كان على جماعة هاسلدن ان تضعها في المكان المعين لم تكن هناك . او ان الضباب قد غطاها . وعندما تقرر ان تقوم الزوارق بعملها لم يستطع سوى زورقين ان يجدا طريقهما الى المدخل، وعندما وصلا قابلتهما نيران المدافع الرشاشة .

ووصلت المدمرتان «السيخ» و«الزولو» وهما تمثلان القوة (أ) وعلى ظهرهما الكتيبة الحادية عشرة من مشاة البحرية الملكية الى مكان يبعد ميلين عن الشاطىء . وبالنسبة للموج المرتفع ، لم تستطع الجماعة الموجودة على الغواصة «تاكو» التي كان واجبها ان تحدد أماكن النزول لرجال المدمرتين ان تنزل الى الشاطىء ، فقد حدثت المتاعب نتيجة لعدم صلاحية زوارق الانزال المعدة لهذه الغاية . وعندما بلغت الساعة الخامسة صباحا لم يهبط

الى الشاطىء سوى ٧٠ من رجال مشاة البحرية الملكية من عددهم البالغ ٨٠٠ ، ونزلوا في بقعة تبعُد ميلين للغرب من مكان نزولهم الصحيح . وبشجاعة بالغة ، حاولت هذه الجماعة الصغيرة ان تشق طريقها مقاتلة الى داخل طبرق . غير أن ذلك كان مستحيلا لقلة عددهم وسرعان ما احيط بهم.

وفي ذلك الوقت اقتربت المدمرتان من الشاطىء ، على بعد ميل واحد، وهي تبحث عن زوارق الانزال التي كان عليها ان تعود لتحمل الموجة التالية من المشاة . وفوجئت بنيران بطاريات الساحل تفتح عليها أفواهها فأصيبت المدمرة «السيخ» في جهاز الادارة وتعطلت عن العمل ، وحاولت زميلتها المدمرة «الزولو» ان تسحبها الى خارج الميناء ، غير ان ذلك كان مستحيلا لان حبل الجر أصابته قنبلة فمزقته . وأصيبت المدمرتان مرارا ، وأرغمت المدمرة «الزولو» على ان تنسحب الى البحر . اما المدمرة «السيخ» فقد اغرقت وسقط بحارتها ومن عليها من مشاة البحرية الملكية أسرى في يد العدو . وعندما طلع النهار ، احضر العدو القاذفات المقاتلة والقاذفات المنقضة من المطارات الموجودة على الساحل بل ومن مطارات جزيرة «كريت». وفي الساعة الحادية عشرة والربع حضر «طراد» مضاد للطائرات لمعاونة المدمرة «الزولو» فأصيب هو الآخر وغرق .

اما المدمرة «الزولو» فقد أمكنها ان تجر أذيالها الى ميناء الاسكندرية وهي معرضة للضرب من الجو والبحر . وبالنسبة لزوارق الطوربيد ، فالى جانب الزورقين اللذين أمكنهما الدخول الى مرسي «سيكيوز» واضطر رجالهما الى تركهما فقد غرقت ثلاثة زوارق اخرى بفعل نيران العدو . وبذلك ، فان الغارة فيما يختص بدور البحرية فيها ، كانت مفجعة .

أما من وجهة نظر الجيش ، فلم يكن الحال احسن . وقبل ان تغرق السفن الحربية هذه ، كان جون هاسلدن ، المخطط الاول للغارة ، قد سقط ميتا .

فقد علم ان اللعبة قد انكشفت عندما عجزت زوارق الطوربيد عن الدخول الى الميناء في موعدها . ولكن طالما كانت هناك فرصة ، فان واجبه هو التمسك برأس الجسر الذي أقامه . ومرت خمس ساعات لم يسمع فيها شيئا عن أخبار كولن كامبل وأرسل العدائين من رجال المراسلات لمحاولة الاتصال به . وهناك أمامه في البحر شاهد رجال البحرية الملكية يحاولون ان ينفذوا مهمتهم غير انهم يفشلون فيها فعندما حاولت زوارق الطوربيد ان تقترب من الشاطىء في موجات التقطتها أنوار المصابيح

الكاشفة ثم دكتها المدافع دكا .

وعندما طلع النهار ، وجد هاسلدن ومن بقي من جماعته ملتفين حول الفيلا التي اتخذها مركزا لقيادته . وزاد نشاط العدو من حوله . وبدون دهشة كبيرة سمعه الرجال والضباط يقول لهم «انا آسف ايها الزملاء ولكن هذه هي النهاية ، وليحاول كل منكم ان ينقذ نفسه» .

وفي هذا الوقت ، كانت باقي الجماعات تقوم بنسف مراكز المدفعية الالمانية وهم ينتقلون من مكان لآخر سارع الى الفيلا ليخبر بأن السيارات المدرعة والدبابات تتحرك للقضاء عليهم . وفي تلك اللحظة وصلت رسالة من كامبل تقول بأنه قابلته مقاومة عنيفة وان كثيرا من رجاله قد جرح وانـــه أصيب شخصيا برصاصة في فخذه .

وحان موعد الرحيل ، فوضع جماعة من الضباط الجرحى في العربة وغرضهم ان يشقوا لهم طريقا خلال الدفاعات . وقبل ان يرحلوا ، جاءت رسالة تقول ان العدو أتخذ مواقعه في الوادي بغرض نصب كمين لهم اذا حاولوا الخروج .

وبسرعة ، قام ضابطان ومعهما بعض الرجال بالانحدار نحو مركز العدو للقضاء عليه ووجدوا هاسلدن هناك قد سبقهم وتمكن بمدفعه الرشاش من ان يقتل عشرة ايطاليين واعطى بذلك مثالا طيبا وهو يتحرك من ملجأ لآخر. ثم ظهرت العربة التي بها الجرحى قادمة ولاحظ هاسلدن حركة من قبل الايطاليين فاندفع نحوهم وهو يطلق نيران مدفعه الرشاش حتى نفـــدت ذخيرته . وتمكنت العربة من المرور . غير أن التعزيزات وصلت للعدو وزادت كثافة نيرانهم التي اخذت تكتسح الارض اكتساحا من كل الزوايا . وأصيب هاسلدن ورؤي وهو ملقى على وجهه على الارض .. وبشجاعة ، تقدم رجلان من رجاله لالتقاطه ، وتبعهما ملازم اسكتلندي اسمه ماكدونالد لمساعدتهما وهو يعدو في الارض المفتوحة تحت وابل من النيران . وقبل ان يصلوا اليه شاهدوا قنبلة تطير في الهواء وتسقط فوق ظهر هاسلدن وعندما ارتفعت سحابات الدخان لم يكن هناك شيء قد بقي منه .

ومن ذلك الوقت ، لم يعد هناك سوى قتال ضئيل . وكنت تـــرى الرجال والضباط يعدون هنا وهناك باحثين عن ملجأ يقيهم من النيران . ومحاولين ان يردوا على نيران العدو كلما أتيح لهم ذلك وهم يحاولون الهرب من النيران ، غير ان احدا منهم لم يفكر ابدا في الاستسلام . وكانت الجماعة الصغيرة الموجودة في الفيلا ما زالت تقاوم أعدادا كبيرة من جنود العدو ،

متحملين وابلا من قذائف المورتر الى جانب نيران المدافع الرشاشة . غير ان ذخيرتهم سرعان ما نفدت وحاولوا التحرك للخروج من مأزقهم فوجـــدوا انفسهم محاطين بكتيبة المانية كاملة ولم يكن امامهم مفر من الاستسلام .

وعندما ارخى الليل سدوله لم يكن هناك سوى عشرة رجال لم يؤسروا بعد وعلى قيد الحياة . فالملازم دافيد لانارك كان مع الجندي ويزمان وثالث من الكوماندوز اسمه ولتر. وبينما كانوا يشقون طريقهم بمحاذاة الشاطىء آملين في ان تلتقطهم مدمرة او زورق طوربيد ، بينما في ذلك الوقت ، كان دافيد لانجتون ومعه العريف ايفانز والمساعد ستاينر من الكوماندوز واربعة رجال آخرين وجدوا انفسهم سويا وليس معهم سوى بعـــض البسكويت والجبن والشيكولاتة ونحو اربع لترات من الماء ، وكلتا الجماعتين تمكنتا من الخروج من نطاق دفاعات طبرق وهم متجهون الى الشرق للوصول الـــى الخطوط البريطانية . واستمرت رحلتهم لمدة عدة اسابيع . واحيانا كانوا يقابلون بعض الاعراب الذين يعطونهم الماء والطعام ، غير ان عددهم تقلص . فقد فقد احد رجال لانجتون . وعانى الرقيب ايفانز من الدسنتاريا الى درجة لم يجد معها مفرا من الاستسلام حتى يحصل على المعونة الطبية . اما الجندي ويزمان فقد قتل برصاصة وهو يحاول ان يدخل معسكرا ايطاليا للحصول على طعام والجندي الآخر سقط ميتا بسبب الدسنتاريا . وهكذا لم يبق مع لانجتون سوى ثلاثة رجال . ووصلوا الى خطوطهـــم في ١٣ نوفمبر . وبعد ذلك بخمسة ايام شاهدت سيارة مدرعة بريطانية ما يشبه هيكل ضابط بريطاني يسير خلال الصحراء وقد طالت لحيته واصبحت ملابسه خرقا ممزقة . غير انه كانت لديه القوة ليقول : «انا الملازم دافيد لانـــارك » .

وهاتان ، هما قصتا «زهور الزنبق» و«سقوط الجليد» وبقي الان ، الكلام عن عملية «تيوليب» وهي الغارة على واحة جالو بواسطة قوة دفاع السودان . فقد تركوا واحة الكفرة في ١١ سبتمبر كما سبـــق ذكره ، ووصلت القوة الى واحة جالو ليلة ١٥ ــ ١٦ . وتوقفوا على بعد ١٥ ميلا من الواحة . ثم تقدمت الطوابير الثلاثة على الاقدام ، وكل منها يرشده الى الطريق ضابط من «مجموعة الصحراء بعيدة المدى» ولم يروا شيئا حتى اصبحوا على بعد ١٠٠ ياردة من القرية والحصن القائم بها .

وهنا ، عارضهم الحراس الايطاليون وكان من الواضح ان الحرس على أهبة الاستعداد وفي انتظارهم . فتشكلت الطوابير بسرعة في وضع القتال

وبدأوا الهجوم ونجحوا في الوصول الى الحصن الشمالي . غير انه طوال الوقت بدا لهم ان العدو يزداد قوة وفقدوا مراكزهم . واستمروا في القتال المضطرب طوال الليل . ولمدة اربعة ايام ، ظل المهاجمون محتفظين بمركز لهم على الحافة الغربية للواحة حيث اخذوا يطلقون قنابلهم على الحصن ويرد عليهم من في الحصن بالمثل . وبين فترات القتال ، كان الاعراب يتسللون بين حفر الاسلحة ويبيعون الدجاج والبيض .

وفي صباح يوم ٢٠ سبتمبر استقر راي القيادة العامة في القاهرة على ان العملية لن يقدر لها النجاح. وعليه ، فقد عادت قوة دفاع السودان الى الكفرة ولم تحقق شيئا .

وهكذا ذبلت ثلاث زهور . ولم تبق الا زهرة «البنفسج» وهي الاسم الكوري لغارة جاك ايسون سميث على (بارك) ولم يسمع احد عنهم شيئا لعدة ايام ، فهل حدث فشل رابع ليتم تسجيله ؟ والحقيقة انه لم يحدث هذا . فرغم الصعوبات ، فان عملية «البنفسج» قد ازهرت .

ففي يوم ١٠ سبتمبر وصل ايسون سميث ودوريتاه «ت١» و «ح١» الى حافة بحر الرمال الاعظم . وكان يمتد امامهم ٢٠٠ ميل من الاراضي التي يعرفونها جيدا ، فاخذوا يقطعونها بنشاط وحمية ، حتى وصلوا الى نقطة تبعد ١٥ ميلا عن «بارك» . وفي تلك النقطة نزل الرائد بانياكوف الذي اشتهر فيما بعد تحت اسم بوبسكي مع اثنين من الاعراب وكان قد صحب القوة وأوكل اليه ان يعرف كل ما يمكنه معرفته عن حامية البلدة . ثم عليهم ان ينضموا للقوة فيما بعد عندما تتحرك للهجوم بعد هبوط الليل . وكان يقود الدورية «ح١» وهي مكونة من رجال الحرس الملكي النقيب تمبسون ويقود الدورية «ت١» وهي مشكلة من النيوزيلنديين النقيب (نيك ويلدر) . وخلال فترة العصر ، أعدوا انفسهم كالمعتاد من تنظيف الاسلحة والكشف عليها .. الخ .. وبعد حلول الظلام ، شرعوا في مهمتهم حتى وصلوا الى «طريق العبيد» ، ثم اتجهوا شمالا .

وعند «سيدي راوي» خرج جندي من نقطة البوليس ليعارضهم ، فما كان من ايسون سميث الا ان أعماه بتسليط مصابيح كشافات السيارة على عينيه ثم قفز من السيارة وجرده من سلاحه . ثم حمله وقذف به الى السيارة . وعندما احسوا ان هناك حركة في نقطة البوليس ، نادى عليهم ايسون سميث باللغة العربية «تعال هنا .. تعال هنا» وظهر ضابط ايطالي، وسرعان ما سقط قتيلا . اما الباقون من الايطاليين ، فقد تسللوا من فوق

الحائط الخلفي وهربوا .

وعلى بعد خمسة أميال عند «سيدي سليم» كان الرائد بانياكوف منتظرا لهم . غير ان الاعراب المرافقين له لم يكونوا قد عادوا . وتركوا لوسون مع سيارة اللاسلكي لكي يشكل نقطة تجمع بعد الغارة . واتجه باقي الرجال ناحية الطريق ، ثم ساروا في اتجاه الغرب .

وعلى بعد خمسة أميال من طبرق اتخذت دبابتان ايطاليتان مركزيهما لتغطية الطريق . وعندما شاهد رجالها الانوار الساطعة من الكشافات لسيارات الكوماندوز ظنوا انه طابور ايطالي ، ثم فوجئوا بنيران ثقيلة تطلق عليهم من العربات المدفعية بغاية السرعة والتي سرعان ما اختفت .

وعند تقاطع الطريق خارج المدينة ، انقسمت القوة ، فقد بقي بانياكوف في المؤخرةليتولى امر المطاردين. واتجه ويلدر والدورية «ت١» الى اليمين، قاصدين المطار . وقصد رجال الدورية من الحرس الملكي الى الثكنات . اما ايستون سميث فقد قاد سيارته ناحية البلدة لتنفيذ مهمته الخاصة . وسرعان ما وصل ويلدر للباب الرئيسي للمطار وفتحه وانطلق خلاله وهو يطلق النار على بعض الايطاليين الذين سارعوا لمقاومته . وكانت قوته مشكلة من عربة جيب و٤ لوريات . وقادها حول قاعة «المنتدى» ومكاتب الادارة وهو يقذف بقنابله اليدوية داخلها . ثم تحول وقصد أماكن هبوط الطائرات . ووجد صفوفا من الطائرات اخذ يطلق عليها نيران مدافعه المتفجرة . والطائرة التي لا تنفجر نتيجة للضرب بالرشاشات على السيارة الخلفية ان تقذفها بالقنابل اليدوية . وعندما استدار الطابور للعودة ترك خلفه ٢٠ طائرة محترقة والباقي قد أتلف تلفا بالغا . ورغم النيران الحامية التي أطلقها الايطاليون فقد كانت غير صائبة ولم تحدث أضرارا .

وعندما وجد ان ذخيرته قد اوشكت على النفاد قاد ويلدر رجاله بعيدا عن المطار .

وفي ذلك الوقت . كان الحرس قد أصبحوا تحت قيادة المساعد دنيس لان النقيب تمسون كان قد جرح عندما انقلبت سيارته الجيب . وعندما انحرف النيوزيلنديون ناحية اليمين قاصدين المطار ، فقد ساروا رأسا الى الامام .. وفيما بعد ، كتب يقول :

«واصلت السير بقدر ما استطيع بجوار المبنى . وأفرغ دنكالف مدفعيه من طراز تيكرز في نوافذ الثكنات ونحن نسير بجوارها . وتولت المدافع الباقية امر النوافذ الاخرى لمجرد اثارة الانتباه . وفي نفس الوقت كان مدفع

(البريدا) الذي معنا يطلق قذائفه من خلال الباب الخاص بالمبنى وسمعنا صوت الصياح والفزع مختلطين بصوت الاثاث المنقول يصلان الينا من داخل المبنى ، وناديت على المدفعية بأن يوقفوا اطلاق النار ويعيدوا تعبئة المدافع بالذخيرة » .

ثم قاد دينس رجاله في محاولة لتسلق الحائط غير ان بعض الجنود الذين خرجوا من المبنى من الايطاليين حالوا بينه وبين ذلك بعد ان تمركزوا في بعض الخنادق . ثم جلب العدو بعض الدبابات ولفترة خيل الى المغيرين انه قد أحيط بهم . حتى عثر دينس على ثغرة في الحائط المحيط بالمطار وقاد طابوره من خلالها . وبعد ان تولى امر بعض المباني الاخرى ، انطلقت الدورية لكي تلاقي ويلدر وسيارته . وتبين أن النيوزيلندي قد أصيب غير انه كان مهتما بثلاثة رجال جرحى معه اكثر من اهتمامه بنفسه . وبعد ان ترك المطار اصطدمت سياراته ببعض الدبابات على الطريق وعندما أسرع في سيره للهرب منهم انقلبت سيارته . وسقط ويلدر تحت السيارة ولم تستطع التحرك ولكن بمجرد ان خلصه الرجال من أسفل السيارة عاد الى مقعد القيادة ثانية والتقط بعض الجرحى وواصل السير .

وخلال ذلك كان ايسون سميث يطلق النيران على بعض المباني وهاجم دبابتين وأطلق نيرانه على مجموعة من الجنود ثم أتلف بعض السيارات .

وعندما بلغت الساعة الرابعة صباحا قرر ان الوقت قد حان للانسحاب وجمع قواته ورغم القتال العنيف الذي اشتبكوا فيه فقد قابله رجال الدوريتين عند (سيدي سليم) ولم يبق سوى ١٠ سيارات من اثنتي عشرة سيارة دخلت بلدة (بارك) . وبدأوا رحلة العودة خلال الظلام . وقد ركب الرجال الستة الجرحى آخر السيارات ومعهم الطبيب . وبعد ان قطعوا بضعة أميال دخلوا واديا في غسق الصباح ، فأطلقت عليهم النيران من كلا الجانبين ، فقد نصب لهم الايطاليون كمينا ، واصيب عديد من الرجال على الفور ، كما أصيبت سيارة الطبيب برصاصة في عجلاتها .

وبدون تردد دار المساعد دينس بسيارته لكي يحميه بمدافعه . بينما يبدلون العجلة المصابة . وعندما عادت السيارات الى مواصلة السير دار حولها وهو يطلق نيرانه الكثيفة على اي شيء يراه يتحرك من ناحية الايطاليين . وسرعان ما توقفت النيران .

وبعد ان قطعوا عدة أميال . توقف الركب ليصنعوا بعض الشاي ويحاولوا اصلاح ثلاث عربات توقفت وكانوا قد ربطوها الى باقي السيارات.

وبينما كانوا منهمكين في ذلك حضر الباقون من رجال الكمين الايطالـــي ليهاجموهم بالبنادق والرشاشات . قفز ايسون سميث من سيارته واتجه نحوهم ورجل المدفعية في سيارته يطلق بمدفعه الفيكرز عليهم . وقبل وقت طويل كان العدو قد أخذ كفايته من القتال فسارعوا بقذف قنابل الدخان لستر انسحابهم وتراجعوا خلال الاعشاب .

وقد تسبب هذا الحادث في بعض التأخير وطلع النهار عليهم . وتوقع ايسون سميث ان تحضر القاذفات لمهاجمتهم فقرر ان ينسف السيارات الثلاثة المعطلة ويتابع سيره في السيارات الباقية .

وبعد ان قطعوا سبعة أميال تعطلت عربة اللاسلكي وشاهدتهم طائرة استطلاع . وفي العاشرة والنصف حضرت المقاتلات وظلت تهاجمهم حتى الغسق . وكان الملجأ الوحيد لهم بعض الاعشاب القصيرة . ولم يكن هناك وقاية ضد النيران المستعرة . وعند المساء لم يكن قد بقي من السيارات صالحا للعمل سوى سيارة نقل واحدة وسيارتي جيب لحمل ٣٣ رجلا في رحلة طولها ٨٠٠ ميل الى واحة الكفرة . كما جرح منهم عدد كبير ، وأمسك ايسون سميث بزمام الموقف وأعطى أوامره . فعلى لوسون ان يتجه الى واحة الكفرة وبير جراري مستصحبا معه عربـــة جيب وسيارة لـوري وستة من الجرحى وسائقا وميكانيكيا ، ويأخذ معه دافيز كمرشد للطريق. والباقون يشكلون في جماعتين ويسيرون على نفس الاتجاه ومعهم السيارة الجيب الباقية لحمل الطعام والماء . وخلال سيرهم في الليل تعطلت السيارة التي معهم وقضوا ساعتين في اصلاحها . وفي اليوم التالي واصلت القوة سيرها حتى وجدوا مضربا للاعراب في الليل فاشتروا منهم حملا وبعض اللبن لشربه ، وفي اليوم السادس عشر كانوا سعداء الحظ لعثورهم على الماء . وقبل فجر يوم ١٧ سمعوا صوت سيارات مارة كانوا متأكدين انها من سياراتهم ولكن رغم انهم اطلقوا طلقات الاشارة لم تتوقف السيارات وواصلت سيرها . وبعد ساعة وصلوا الى احد المرتفعات ليجدوا اوليفي ورجاله من النيوزيلنديين معسكرين في الوادي ويطهون طعام افطارهم .

ووصل لاوسن وجماعته الى نقطة اللقاء وحملتهم طائرات الســـلاح الجوي الملكي الى القاهرة .

وقد شفي جميع الرجال من «مجموعة الصحراء بعيدة المدى» وأسر ١٠ رجال . وفقدت ١٤ مركبة . ومنح ايسون سميث و ويلدر كل منهما وسام «الخدمة الممتازة» كما منح وسام «الصليب الحربي» وثلاثة مـــن

اوسمة «الميدالية الحربية» الى بعض من اشترك في الغارة . وفيما بعد قرر الايطاليون ان ست عشرة طائرة قد دمرت كما أعطبت سبع طائرات بواسطة «السيارات البريطانية المدرعة» .

ولكي تكمل الرواية فانه من اللازم العودة الى سترلنج وماكلين وجماعتيهما الذين تركناهم عند سفح التلال والطائرات تقذف ليل نهار بين قاذفات ومقاتلات. وعلى ضوء السيارات الملتهبة قاموا بتقسيم الطعام والماء وانقسموا الى ثلاث فرق يقودهم سترلنج وماين وماكلين . اما كريس بايلي وباقي الجرحى ذوو الجروح الخطيرة فقد ارسلوا الى بنغازي ومعهم اسير ايطالي تحت علم الصليب الاحمر والباقون ومعهم بوب هيليوت فقد ساروا مع باقي الطوابير الناجية .

وكانت ليلة مظلمة والسير فيها بطيئا . ورسمت الخطة على اساس الاتجاه الى الجبل حيث يمكن الاختفاء طوال النهار . وكانت جماعة ماكلين سعيدة الحظ بعثورها على واد قبل طلوع النهار حيث كان من الممكن اخفاء المركبات والالتجاء الى الاعشاب . وعند الصباح عندما نظر «ماكلين» و«الستن» عبر الصحراء شاهدا سربا من طائرات العدو تهاجم طابورا آخر . ورأيا عمودا من الدخان يرتفع الى السماء . وهذا معناه ان سيارة او اكثر قد اصيبت .

وكان هذا الطابور هو طابور سترلنج وقد اكتشف مكانه عندما حاول احد رجال «خدمة الطيران الخاصة» أن يلحق به للانضمام اليه فشاهدته طائرات العدو وتتبعته . وعندما أحصى سترلنج خسائره بعد انتهاء الغارة وجد انه لم يبق لديه من المركبات الا لحمل كل ٢٠ رجلا في سيارة لوري واحدة . وكل ثمانية رجال في عربة جيب ــ واكثر من هذا سوءا لم يبق معهم من البترول الا ما يكفي لوصولهم الى واحة جالو . وكان امله معقودا على ان تكون «قوة دفاع السودان» قد نجحت في احتلالها .

وفي صباح اليوم التالي واصلت الطوابير سيرها . وقد وجد ماكلين صعوبة كبيرة في العثور على طريق خلال الوديان غير انه نجح في الوصول الى الصحراء المفتوحة حيث كان السير أسرع وأسهل . غير ان الفجر طلع عليهم وليس امامهم ما يمكن ان يلجأوا اليه للاختباء اثناء النهار . ولم يجد سوى بعض الاعشاب الشوكية التي لا يزيد ارتفاعها عن ٦٠ سنتيمترا . فقاموا بتفريق السيارات ووضع شباك التمويه فوقها ثم كسروا بعض الاغصان والاعشاب ونثروها فوق الشباك . زيادة في التعمية . وحفر كل

فرد منهم لنفسه حفرة في الرمال وحاولوا النوم والذباب يهاجمهم بكل عنف . ولحسن الحظ كان الذباب هو العدو الوحيد الذي شاهدوه خلال النهار . ولم تظهر اي طائرة في السماء .

وفي مساء اليوم التالي واصل الطابور سيره وظلوا سائرين خلال صباح اليوم التالي وهم يخاطرون باكتشاف امرهم من الجو بسبب قلة الطعام والماء . وقاسوا من الحرارة العنيفة وكثيرا ما كان الرجال تأخذهم سنة من النوم فيسقطون من فوق العربات فيضطرون الى التوقف لالتقاطهم ثانية . وعند غروب شمس يوم ١٨ سبتمبر كانت الطوابير على بعد ٣٠ ميلا من واحة جالو وتناولوا وجبة عشاء احسن من المعتاد وهم يأملون في الحصول على مؤن جديدة في صباح اليوم التالي .

وعند منتصف الليل تركهم ماكلين للقيام بجولة استطلاع حول الواحة ليعرف هل العدو ما زال موجودا ام رجال (قوة دفاع السودان) . واطلقوا طلقات الاشارة كنوع من التعارف فلم يتلقوا ردا عليها . فانتظروا حتى الفجر قبل ان يتجمعوا ناحية اشجار النخيل اول حدود الواحة . فجاءت ثلاث طائرات المانية والقت عليهم حزمة من القنابل . وهذا مما جعلهم يعتقدون أن السودانيين ما زالوا على مقربة من المكان . وقد زاد هذا الاعتقاد قوة عندما انطلقت بعض المدافع واخذت تقابلها على الحصن الايطالي في وسط البلدة . ثم بدات القنابل تتجه ناحية ماكلين وجماعته . وبدأ يتحقق من انه واقع وسط ميدان معركة . فتحرك بسرعة وتمكن من ان يتصل (بقوة دفاع السودان) وعلم منهم انهم مشتركون في معركة منذ خمسة ايام وانهم قد تلقوا من فترة وجيزة اشارة من القيادة العامة تأمرهم بالعودة الى (الكفرة) .

وعلى كل ، فان ذلك لم يكن سيئا ، فقد امدتهم «قوة دفاع السودان» بالطعام والوقود والماء كان متوفرا بكثرة في الآبار واشجار النخيل مثقلة بعراجينها من البلح .

ووصل سترلج وماين كل مع جماعته .. وسرعان ما انطلقت الطوابير متجهة الى الكفرة . غير ان قلقهم لم يكن قد زال . فقد اوضحت القيادة العامة في رسائلها الى «قوة دفاع السودان» ان وحدة «خدمة الطيران الممتازة» قد نجحت في ان تحول قوات كبيرة من الالمان عن الجبهة . فالطوابير الالمانية المدرعة ومعها المشاة تذرع الصحراء بحثا عنهم .. كما ارسلوا الطائرات لنفس هذا الغرض . ورغم ان سماع هذه الانباء كان فيه عزاء لهم وثناء عليهم وخاصة انه خير لهم ان تمدحهم القيادة العامة بدلا من

ان تسخط عليهم . فإن الرجال كان لديهم شعور بأنهم مجردون من كل حول وقوة ، كلما شاهدوا الصحراء ممتدة عارية أمامهم ولذلك بذلوا مـــا يستطيعون لقطع اكبر مسافة تفصلهم عن العدو وواصلوا السير خلال الليل التالي وهم يطلقون اشعة مصابيحهم الكشافة . وعند الفجر وصلوا الى ارض صحراوية قال عنها ماكلين : «كانت التلال الضخمة ترتفع من فوق الرمال تغطيها الحشائش والشجيرات والاشجار . وكان هذا مكانــا ممتازا للاختفاء فقام الطابور بعملية التمويه المعتادة واستلقوا يطلبون الراحة طوال النهار. وعندما حل الليل واصلوا رحلتهم طوآله وطوال اليوم التالي ووصلوا الى طريق قديم للقوافل يؤدي الى «ذقن» وواحة «بير هاراش» . ووجدوا طابور «قوة دفاع السودان» معسكرة هناك ودلتهم على آبار للمياه ، غير رائعــة .

ثم واصلوا رحلتهم دون حوادث هامة عدا السيارات التي كانت تنغرس في بحر الرمال والجهد الكبير الذي كان يتطلبه اخراجها . وبعــــد يومين وصلوا الى «الكفرة» قبل ان يحل الظلام بقليل وعانوا الكثير من تعطـــل السيارات كل ميل وآخر .

ولم يكن الرجال يرغبون في شيء الا النوم . فقد اشتاقوا للنوم لمدة ساعات وساعات دون قلق او ازعاج . وقد حصلوا على بغيتهم .

الفصل العاشر

أيام العلمين وما بعدها

عندما وصل سترلنج الى القاهرة في أوائل اكتوبر ١٩٤٢ وجد ان القائد الجديد للجيش الثامن الجنرال السير برنارد مونتجمري قد أنشأ ادارة جديدة تحت اسم «قوة الاغارة ح» تحت قيادة العقيد شان ماكت . وسرعان ما يتبين ان وحدة وحدة «خدمة الطيران الخاصة» سوف تكون تابعة لهذا التشكيل .

وعندما قابل سترلنج العقيد ماكت أحس بارتياح اليه وبحث معه الخطط الخاصة بوحدته خلال الهجوم القادم . وقال ان مهمة «وحدة الطيران الخاصة» هي اثارة الفوضى في مؤخرة روميل وقطع خطوط مواصلاته . ومنع تراجعه بالقيام بالغارات عليه كل ليلة . ومثل هذا البرنامج يتطلب رجالا اكثر . وهؤلاء يجب ان يكونوا مدربين ومن وحدات ممتازة . وقد قرظ ماكت الفكرة ورتب مقابلة مع مونتجمري شخصيا . وتوجه الرجلان لمقابلته في عربة قيادته . ومنذ بداية المقابلة أظهر مونتجمري سخطه التقليدي لدى رجال الجيش النظاميين ضد الوحدات غير النظامية . ولم تكن اعمال سترلنج الباهرة خلال العامين المنصرمين تعني شيئا بالنسبة اليه. وقد وصل به الامر الى ان اخذ يقرع سترلنج على فشله في عملية بنغازي.

اما سترلنج من ناحيته ، فقد ضحك من تأكيد مونتجمري له في ثقة انــه سوف يحطم جيش روميل تحطيما نهائيا . رقال له ان من سبقه من القادة قد قال قوله وفشلوا كلهم في تحقيقه . وكان رد مونتجمري على ذلك انه رفض الاذن لوحدة «خدمة الطيران الخاصة» بأن تجند رجالها من رجال الآليات النظامية . ويمكنها الحصول على ما تريده من مراكز أساس المشاة ، وغالبيتهم قد وصلوا حديثا من الوطن . وكان على سترلنج ان يقنع بذلك.

وفي ٢٣ اكتوبر بدأ مونتجمري هجومه من العلمين . وبعد اربعة ايام من القتال الوحشي الباهظ التكاليف تمكن من اختراق خطوط روميل . ودفعه الى الخلف واكرهه على التراجع الى العقيلة .. وهناك توقف الجيش الثامن لمدة شهر . وكان على مونتجمري ان يشن هجوما آخر على روميل لانه بالرغم من انه لحقت به خسائر فادحة ، فان جيشه كان لا يزال قائما وقادرا على القتال .

وخلال فترة الراحة هذه واصل سترلنج تجنيد كل من يستطيع ان يجده من الرجال وبالرغم من كراهية مونتجمري له ، فان الكسندر رئيس مونتجمري والقائد العام في الشرق الاوسط وكذلك ونستون تشرشل كانا معجبين به . وهكذا وضعت الترتيبات على ان تتولى وحدة «خدمة الطيران الخاصة» ادارة «قسم الزوارق الخاصة» وليس ذلك فقط ، بل تشرف على كل ما بقي من الكوماندوز في الشرق الاوسط . وبذلك أصبح تحت امرة سترلنج حوالي ٨٠٠ رجل .

وكان السؤال : ما الذي تستطيع ان تقوم به وحدة «خدمة الطيران الخاصة» والجيش الثامن يتقدم دائما الى الامام ؟ ووضع سترلنج خطة وتقوم على ان يجعل المرور فوق الطريق الساحلي المعبد صعبا للغاية لدرجة تكره الالمان على ان يتحركوا بالليل . وهكذا يعرضون انفسهم لقذف سلاح الجو الملكي .

وقد وافق مونتجمري على هذه الخطة ، وتم البحث عن قاعدة في وادي اسمه «بيرزالتن» يقع على بعد ١٥٠ ميلا جنوبي العقيلة . ومن ذلك المكان وضع سترلنج خطته بارسال جماعات من المغيرين حتى يصبح الطريق بين العقيلة في الشرق وطرابلس في الغرب والمسافة بينهما ٤٠٠ ميل تحت وطأة الهجوم المستمر . وكانت الشؤون الادارية للخطة والشؤون العملية لها صعبة للغاية . غير أن سترلنج كانت لديه الثقة في قدرته على تذليلها . حتى ان مونتجمري نفسه أبدى اعجابه وقال : «ان هذا الولد سترلنـــج

مجنون . جد مجنون .. واذا نجحت خطته فاني لا أبالي اذا قلت انه سوف يكون لها اثر حاسم . نعم اثر حاسم فعلا على هجومي المقبل» .. وعندما سمع هيكت هذا ، أرسل برقية الى سترلنج يقول فيها : «ان قائد الجيش يعتقد بأن نشاطك قد يكون له اثر حاسم على مجرى «المعركة» فأجاب عليه سترلنج : «أرجو ان تهنىء قائد الجيش على تنبؤاته» .

وغادر سترلنج وقيادته معسكر «كبريت» في نوفمبر وبعد اسبوع كان قد ستقر في امان بقاعدته خلف خطوط العدو . وتوفرت لديه المعلومات الكثيرة عما يجري على الطريق الساحلي لان رجال «مجموعة الصحراء بعيدة المدى» يراقبون الطريق ويسجلون رقم ووصف كل مركبة تسير عليه . وكان تمبسون قد شفي من جراحه قد عاد يقود دورية من رجال الحرس في عملية رائعة فقد ظل يراقب الطريق لمدة خمسة عشر يوما متصلة قبل ان يصل من يحل محله ويعود الى «الكفرة» . وفي يوم وصوله وهو يوم ١٣ ديسمبر ١٩٤٢ كان بدء هجوم مونتجمري وشروع سترلنج في عملياته . فقد وضع سترلنج كتيبتين لتنفيذ المهمة أ والمهمة ب وقسم كل كتيبة الى ثماني دوريات كل دورية من ثلاث سيارات جيب يحمل كل منها ثلاثة أفراد واعطاهم الامر بأن على كل دورية ان تشن هجوما على الطريق كل ثلاثة ايام. ولهم حرية اختيار هدفهم ، فاما ينسفون وسائل النقل او يقطعون خطوط التليفون ، ام يبثون ألالغام فوق الطريق .

ولم يستطع سترلنج ان يبقى ليدير العمليات بنفسه . فقد استدعاه ماكيت الى «كبريت» حيث يلزم وجوده للبت في المسائل الادارية . وقد أدى هذا بدون شك الى تعرض دورياته للشدائد وهو ليس معهم ليوجههم بعبقريته . وقد نجحت كل دورية في القيام بغارتين او ثلاثة في البداية . وقد أدى ذلك الى خيبة امل سترلنج لانه كان يأمل في ان تواصل الدوريات عملها لعدة اسابيع . ولكنه في الحقيقة نجح اكثر مما كان يعتقد . فقد كتب روميل في يومياته عن غارات متعددة للتخريب . وكان يعرف على التحديد من هو المسؤول عن كل ذلك . وقد كتب يقول في احدى مذكراته ما يلي :

«في يوم ٢٣ ديسمبر انطلقنا في الساعة الخامسة من صباح يوم مشرق جميل لكي نستكشف الارض الواقعة جنوبي الجبهة . وقد سرنا اولا فوق الطريق المسمى «طريق بالبيا» ومعنا سيارتان ايطاليتان مدرعتان كحرس ، ثم سرنا خلال الوادي المعشب الجميل المسمى «وادي زمزم» متجهين الى ناحية «الفسقية» وسرعان ما عثرنا على آثار السيارات التابعة لجماعة

سترلنج الذين سبقونا الى هذا المكان لكي يهاجموا خطوط التموين التابعة لنـــا » .

وقد امر روميل بضرورة القضاء على المغيرين بكل الوسائل الممكنة . وفي أوائل يناير ١٩٤٣ كان قد وضع حدا للغارات. فمن رجال الكتيبة«ب» لم يبق سوى ثلاثة ضباط لم يقعوا في الاسر . اما الكتيبة «أ» التي كان يقودها بادي مين فقبل ان تشن غاراتها على الطريق وصلت لها اشارة من القيادة العامة ، تأمرها بالتوقف حيث ان الجيش الثامن يشن هجومه على المنطقة . ولم يكن لدى سترلنج سوى ان يأمر دورياته بالعودة والتجمع استعدادا لما قد يوكل اليهم من مهام .

وفي ذلك الوقت كان جو العمليات الحربية على مسرح الشرق الاوسط قد تغير تماما . فقد ثبت ان الكسندر ومونتجمري ليسا مجرد قائديـــن عاديين كما تسرع اولا في نعتهما . فقد كانا قائدين ممتازين ويعلمان جيدا المطلوب منهما .

وزيادة على ذلك ، فقد أصبحا متفوقين على روميل تفوقا كبيرا في الرجال والمعدات وينتويان استخدام هذا التفوق بكل ما في وسعهما. ليس فقط لاجبار الفيلق الافريقي على التراجع نحو تونس ولكن لتدميره وسحقه. وفي كل مكان كانت الجيوش مملوءة بالثقة . وبالاضافة لذلك فان القوات الامريكية تحت قيادة ايزنهاور قد نزلت في الجزائر خلف روميل وهـــي تتقدم ناحية الشرق والجنوب . وهكذا بدت بوادر النصر في النهاية .

وعزم مونتجمري على ان يكون الهجوم التالي في ١٥ يناير وهو يأمل في ان يصل بهجومه هذا الى ما خلف طرابلس . وكان العمل الموكل الى وحدة «خدمة الطيران الخاصة» المرتبط بهذا الهجوم هو كما يلي :

على النقيب جوردان وثلاث دوريات فرنسية ان يغيروا على خـــط المواصلات بين صفاقس وقابس في تونس . وتقوم قوة اخرى بعملية الى الغرب من طرابلس ، بينما يهاجم الجيش الثامن من الشرق والجنوب .

كان الغرض من العملية الاخيرة هو بث الذعر في نفوس الالمان حتى يتراجعوا بسرعة قبل ان تتاح لهم الفرصة لتدمير المنشآت . وأوكلت الى قوة ثالثة عملية استطلاع «خط مارت» في تونس الذي يبعد ٢٠٠ ميل غرب طرابلس . وعلى سترلنج بنفسه ان يقوم بعملية استطلاع لشمال تونس وأن يتصل بالجيش البريطاني الاول .

ومن اجل هذه المهمة قرر سترلنج ان يصحب سادلر كملاح ومرشد

له لان مهمة اجتياز الاراضي المجهولة في الجزائر كانت عملية صعبة . وفي يوم ١٠ يناير انطلق في مهمته قاصدا «بير جوداقيا» حيث انضم اليه جوردان ودورياته الثلاث . ثم قرر ان تنقسم القوة قسمين ــ تسير كل منهما مستقلة عن الاخرى ، ثم يتقابلان في شمال تونس عند نقطة «بير سلطان» . ويقع هذا المكان في الارض التي طلب من سترلنج ان يستطلعها للجيش الثامن ومخابراته . وهذا يهيء نشطة انطلاق جيدة لجوردان وقوته لتنفيذ العملية الموكولة اليهم بين صفاقس وقابس .

وفي البداية كان السير حسنا والطريق مريحا حيث سارت السيارات بسرعة ٥٠ ميلا في الساعة حتى وصلوا الى غدامس . وهناك علموا ان الجنرال ليكليرك والقوات الفرنسية الحرة المتقدمة من ناحية بحيرة تشاد لا تبعد عنهم اكثر من ٧٠ ميلا . ولم يكن لديهم الوقت الكافي لتحيتهم . واتجه سترلنج ناحية الشمال عبر منطقة اسمها «بحر أرق الكبير» وهي اصعب ارض صادفها خلال رحلاته الطويلة . وبجوار «بئر سلطان» سار الى حيث يمكنه ان يستطلع الارض حول «خط مارث» . وهناك علم ان مونتجمري قد استولى على طرابلس . وفي نفس الاشارة الواردة له من القيادة العامة ، طلبوا منه ان يشن غارة على صفاقس وقابس بأسرع ما يمكن ، فأمر سترلنج جوردون وقوته ان يتجهوا شمالا على الفور . وأعاد النظر في جدول اعماله ، فوجد ان طريقه الى الاتصال بالجيش الاول في الجزائر سوف يمر على جنوب «شط الجريد» غير انه بالنسبة لتقدم الجيش الثامن السريع قرر أن يوقف استطلاعه لمدة يوم ويتابع جوردون خلال الثغرة الواقعة شطر البحيرة والساحل عند قابس وهي المسماة «بثغرة قبس» ويسرع الى الشمال لكي يهاجم «سوس» قبل ان يتابع تقدمه . وكانت معلومات المخابرات تدل على ان موقف التموين بالنسبة لروميل صعب للغاية وان كل ضربة توجه الى مؤخرته تساعد الجيش الثامن مساعدة فعالة .

وأسرع سترلنج متجها الى الشمال فوق ارض وعرة متجها الى «الثغرة» وكان معه خمس سيارات جيب و١٤ رجلا . وقبل ان يحل الغسق ظهرت طائرتا استطلاع المانيتان وبعد ان حلقتا فوقهم وتعرفتا عليهم أقلعتا الى القاعدة .

والذي حدث كما اعتقد سترلنج هو ان جوردان قد بدأ عملياته وان

الالمان يراقبون الثغرة مراقبة دقيقة . ومن الواضح انهم قد انذروا القوات الارضية التي تتجه الان اليه . وانه ليس من المستحسن ان يحاول المرور من الثغرة قبل طلوع النهار . وواصل الطابور تقدمه في مشقة فوق ممرات صخرية تقطعها أخاديد عميقة ، وعندما انبثق نور الصباح كان قد قطع ٢٠ ميلا . ووجدوا انفسهم على حافة طريق قفصة ورأوا قوات العـــدو تتحرك فوق الطريق . وانتظروا مدة ساعة حتى خلا الطريـــق ثم اندفعوا يعبرونه متجهين الى الشمال لمسافة ٢٠ ميلا آخر حتى وصلوا الى واد عميق أعطاهم الحماية الجيدة من أنظار الاعداء . وقام سترلنج بتخبئـــة العربات وأرسل سادلر وضابطا آخر لالقاء نظرة على ما حولهم . وبعد وقت قصير عادا ليخبراه بأنه يوجد طريق على بعد ميل واحد يذخر بحركـــة الجيوش الالمانية . كما وجدا بعض المخازن وبها سيارات تشحن وتفرغ . واستمع سترلنج الى هذه الانباء بهدوء واقترح على الجميع ان يحاولوا النوم ، فان عليهم في الليلة التالية ان يغيروا على بلدة «سوس» .

غير ان الامور سارت سيرا خاطئا . فحوالي الساعة الخامسة سمع سادلر وكوبر خطوات عسكرية عند مدخل الواديووجدوا انفسهم مواجهين قوات عسكرية مسلحة . . وهكذا قبض على المغيرين وهم نيام . اما سترلنج الذي كان نائما في احد الكهوف فقد استيقظ من نومه ليجد مسدسا مصوبا اليه في يد جندي الماني كان يبدو عليه الخوف . وسار الجندي بظهره الى مدخل الكهف وهو يشير الى سترلنج بأن يتبعه ولم يكن هناك مناص من الخضوع . وعندما تعودت عيناه على ضوء النهار ، بعد ظلام الكهف ، نظر حوله فوجد حافة الوادي محشوة بالجند وبنادقهم مصوبة اليه بالمئات . وأخيرا خانه الحظ .

وسمح للاسرى بأن يجمعوا متاعاتهم الشخصية ثم جمعوا وحملوا في سيارة لوري .

وبعد ساعتين توقفوا عند احد المعسكرات القريبة من «مدنين» وعزم سترلنج على الهرب عندما يحل الظلام . وعند ذلك طلب ان يؤخذ الـــى المرحاض . وعندما قادوه اليه اخذ يعدو بكل سرعة هاربا ومعه ضابط آخر اسمه ماك درموت .

وخيل اليه ان الخطة نجحت ، فقد أمكنه ان يقطع ستماية ياردة دون ان يصاب بالرصاص الذي اطلق عليه وأختبأ بين بعض الشجيرات . ولكنه

لم يعثر على زميله وتمكن من قطع ١٥ ميلا خلال ساعات الليل ، حتى عثر على منزل احد الاعراب الذي بدا عليه السرور لرؤيته وقدم له الطعـــام والشراب . ثم نام في احد المخازن . وقد قدر انه يبعد ٣٠ ميلا عن «بير سلطان» وانه يستطيع ان يقطع ٢٠ ميلا منها قبل بزوغ الفجر . غير انه تاخر لمدة ساعة لكي يستطلع مطارا مجاورا مملوءا بالطائـــرات من طراز يونكرز ٥٢ . غير انه وجد الطريق وعرة للغاية . وبحث حتى عثر على اخدود نام فيه . وايقظه احد الاعراب قبل غروب الشمس الذي قدم له الطعـام والشراب . وتبعه سترلنج عبر الوادي الى المصيدة التي اعدت له . ففجأة، اخرج الاعرابي مسدسا ونظر سترلنج الى الامام فشاهد سيارة مملوءة بالجند والمدافع الرشاشة . ولم يكن هناك متسع للهرب في هذه المرة . فالرائد الشبح لم يعد شبحا بعد الان .

ورغم ان اسر سترلنج احدث الخلل في وحدة «خدمة الطيران الخاصة» فان اسره لم يكن نهاية لعمل هذه الوحدة. فقد تولى بادي مين القيادة بعده. ومع انتقال الحرب الى ايطاليا وفرنسا والمانيا زاد تعداد الوحدات العاملة حتى اصبح ٥ آلايات . منها اثنان بريطانيان ومثلهما من الفرنسيين وآلاي من القوات البلجيكية . وقد قاموا بأعمال عظيمة غير ان الصحراء لم تكن خلفهم . واصبحت اعمال المغيرين في الصحراء جزءا من التاريخ .

وبانتهاء الحرب في شمال افريقية ، انهت «مجموعة الصحراء بعيدة المدى» اعمالها وعادت المركبات الى القاهرة لآخر مرة . وخلال يناير وفبراير ١٩٤٣ كان العمل الرئيسي للوحدة هو استطلاع مساحة آلاف من الاميال جنوب خط «مارث» وفي الشهور التي تلت ذلك ظهرت ثمرة هذا العمل المضني . فعندما درس مونتجمري تقارير «مجموعة الصحراء» قرر انه في الامكان تطويق خط «مارث» واوكل الى الفرقة النيوزيلندية القيام بهـــذه المهمة . ومن اجل تحريك مثل هذا العدد الكبير خلال الصحراء فانه يلزم اقامة المخازن والمستودعات على طول الطريق . وكانت مهمة رجال «مجموعة الصحراء» هي اختيار مواقع هذه المستودعات وقيادة سيارات التمويـــن اليها . وفي منتصف مارس كان كل شيء معدا وحددت الطرق .

وفي ١٩ مارس تحركت الفرقة يقودها المرشدون من رجال «مجموعة الصحراء» الى «جبل تياكا» وهدفها قابس والحمة . وقد احس روميل بالخطر فحرك فرقة مدرعة وفرقتين من المشاة الى الغرب من قابس لسد

الثغرة . غير ان مونتجمري من جانبه عزز النيوزيلنديين بالفرقة الاولى المدرعة ، ويعاونها في ذلك سلاح الجو الملكي وسلاح الجو الامريكي . وقد الحقت هذه القوات هزيمة ساحقة بالالمان واضطر روميل الى التخلي عن خط «مارث» والتراجع الى الخلف . وبعد ان سقطت قابس بأربعة ايام كتب مونتجمري الى برندرجاست قائد رجال «مجموعة الصحراء بعيدة المدى» يقول :

«عزيزي برندر جاست ، سوف نعيد الى القاعدة «المجموعة الهندية بعيدة المدى» غدا . لقد قاموا بعمل مفيد من استطلاع للطرق . والقيام بحراسة المطارات وغير ذلك من الاعمال . غير اني اعتقد انه لم يعد لهم دور الان في البلاد التي نحارب فيها الان . واني احب ان اعرفك كم اقدر العمل الرائع الذي قامت به دورياتك ودوريات وحدة «خدمة الطيران الخاصة» في استطلاع وكشف الارض امام الجيش حتى «ثغرة قابس» فانه بدون تقاريرهم التي يعتمد عليها وتتسم بالدقة لم يكن بالامكان شن الهجوم في الجناح الايسر بواسطة النيوزيلنديين والذي كان يعتبر ضربة عشواء . فبالمعلومات التي قدموها امكن وضع الخطة ببعض الثقة . وكما تعلم فانها نجحت بدون عائق .

ارجو ان تبلغ شكري الى كل من اشترك في هذا كما تبلغهم احسن الامنيات من الجيش الثامن بالنسبة للاعمال الجديدة التي تقومون بها حاليا » .

المخلص ـ برنارد مونتجمري

وحيث ان سترلنج كان اسير حرب ، فانه حرم من تلقي مثل هذه الاشارات التي تبعث على راحة النفس . ولو عرف بها لشعر بالرضى من المقدمة التي كتبها روميل في يومياته في ذلك الوقت ، فقد قال عنه ما يلي:

«وهكذا فقد البريطانيون هذا القائد القدير المحنك لقوتهم الصحراوية التي الحقت بنا من الخسائر اكثر مما الحقته بنا اية وحدة اخرى في قوتها » .

وفي يوم ١٣ مايو في الساعة الواحدة و١٦ دقيقة ، ابرق الجنرال الكسندر الى رئيس الوزراء ونستون تشرشل بما يلي :

«سيدي ، ان من واجبي ان ابلغكم بانتهاء الحملة التونسية ، فقد توقفت كل مقاومة للعدو . ونحن الان مسيطرون على كل الشاطىء الافريقي

الشمالي وأنا في انتظار أوامركم» .

وقد تطلب النصر ثلاث سنوات وكثيرا من المعارك وكثيرا من التضحيات ومن بين الاعداد التي اشتركت في المعركة كانت «مجموعة الصحراء بعيدة المدى» ، ووحدة «خدمة الطيران الخاصة» تمثلا نسبة ضئيلة جدا . ولكن الحقيقة هي ان النصر كان يتأخر عن ذلك ويتطلب تضحيات اكثر بدون عمل الجماعات . وان دورهم في تاريخ الحروب سوف يظل دورا فريدا .

فهرست

يتناول هذا الكتاب القيم حرب العصابات التي دارت رحاها في صحراء ليبيا العربية أثناء الحرب العالمية الثانية. أن هذه الحرب المتواصلة كانت ذات أهمية ملحوظة في تقرير مصير المواجهة بين جيوش رومل وجيوش الحلفاء في شمالي أفريقيا وهي مليئة بالدروس والعبر العسكرية للجيوش النظامية والشعبية على حد سواء.

وبالطبع فإن لحرب العصابات في الصحراء أهمية مضاعفة بالنسبة لنا كعرب نظراً لطبيعة أراضينا وللاحتمالات الخطيرة التي تطرحها السياسات الاستعمارية العدوانية في المرحلة الراهنة. علاوة على ضرورة إلمامنا بجميع أنواع الحروب وظروفها المختلفة بحكم ظرفنا القومي العام.

المؤسّسة العربيّة
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير ـ
ت ١/٨٠٧٩٠٠ برقياً «موكيالي»
بيروت ـ ص.ب: ١١/٥٤٦٠ بيروت
تلكس: LE/DIRKAY ـ ٤٠٠٦٧.